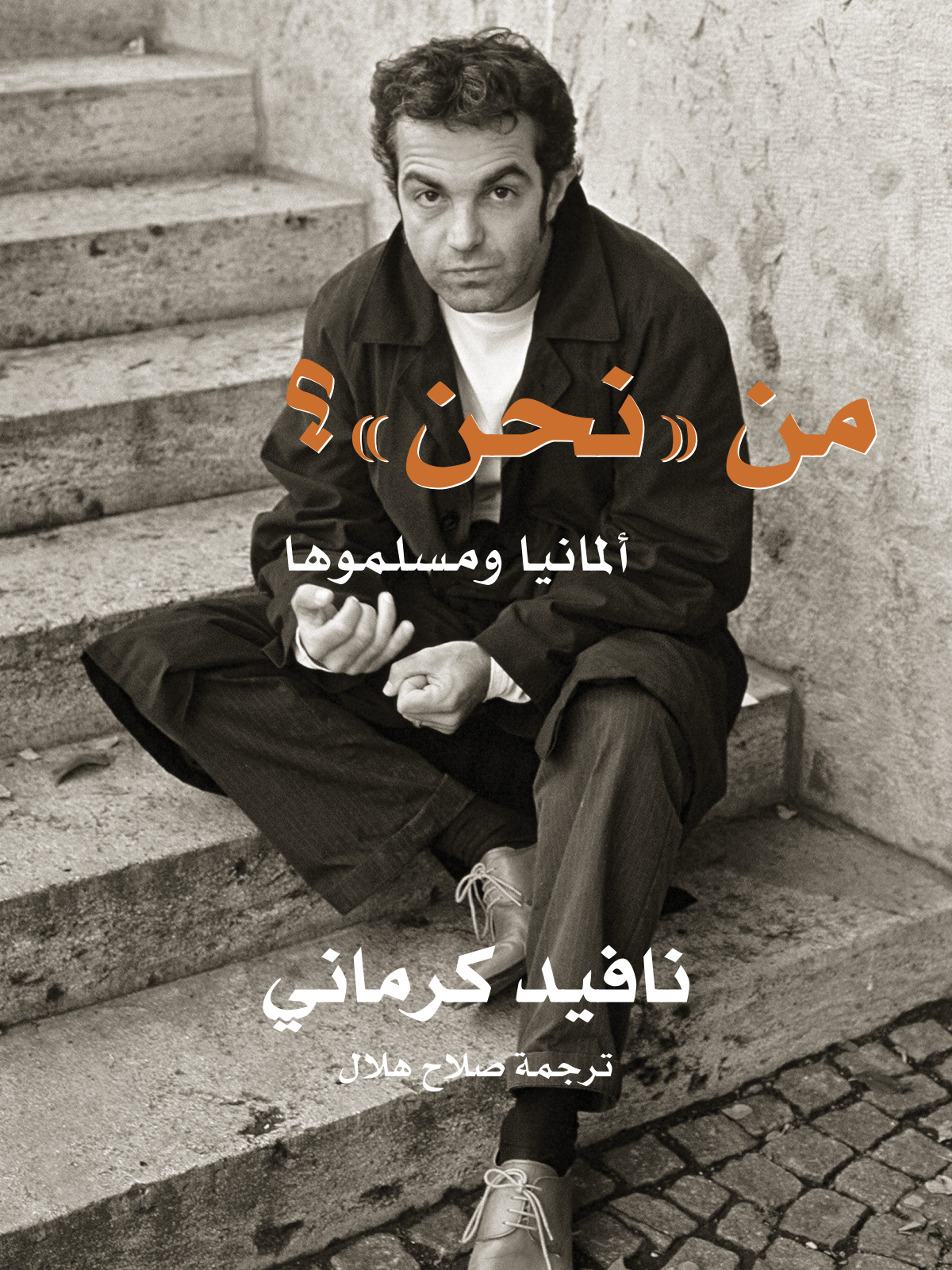

من «نحن»؟

ألمانيا ومسلموها

نافيد كرماني

ترجمة صلاح هلال

من «نحن»؟

ألمانيا ومسلموها

تأليف

نافيد كرماني

ترجمة

صلاح هلال

هنداوي

من «نحن»؟

نافيد كرماني

Wer Ist Wir?

Navid Kermani

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٧ ٠٠٦٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الألمانية عام ٢٠٠٩.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لدار نشر سي ها بِك فيرلاج.

Copyright © Verlag C.H.Beck oHG, München 2009.

المحتويات

إهداء المؤلف	٧
التنقُّل فيما بين الحدود	١١
أيديولوجية برجوازية	٢٣
ألمانيا تزداد انفتاحًا على العالم	٣٩
نحن مورات كورناز	٤٩
الإرهابيون بيننا	٥٧
القرآن والعنف	٦٩
هل الإسلام قابل للاندماج؟	٧٧
فليحيا الاختلاف	٨٥
مؤتمر الإسلام في ألمانيا	٩٥
ملحق	١٠٣

إهداء المؤلف

تخليدًا لذكرى الأستاذ عبد الجواد فالاتوري (١٩٢٦–١٩٩٦).

تعتمد مادة هذا الكتاب، في أجزاء كبيرة منها، على محاضرة ألقيتها بدعوة من المعهد الثقافي العلمي في مدينة إسين في الرابع من شهر ديسمبر ٢٠٠٧ في مسرح جريلو، وبعد ذلك في عدة مدن أخرى. ظهرت نسخ مختصرة منها في جريدة «زود دويتشه تسايتونج» و«شبيجل شبيتسيال». وفضلًا على ذلك يعتمد الكتاب على عديد من المقالات التي كتبتها والكلمات التي ألقيتها، والتي نُشر معظمها في جريدة «تسايت» وجريدة «زود دويتشه تسايتونج». أدخلتُ تعديلات وإضافات كثيرة على المواد المذكورة.

التنقُّل فيما بين الحدود

أستطيع أن أتذكر جيدًا التنقل فيما بين الحدود في طفولتي. فوق الجبل الذي كُنا نسكن أعلاه لم يكن يُميزني، كغريب في الشارع، عن بقية الأصدقاء سوى اسمي وشعري الأسود. حتى لغتي الألمانية كنت أتكلمها باللهجة المألوفة لمنطقة الجبال الوسطى التي كنا نعيش فيها، وكنت أنطق حرف الراء المتحرك بالطريقة المميزة لها أيضًا. إلا أنني عندما كنت أذهب إلى البيت، كان الأمر يبدو وكأنني قد عبرتُ حدودًا ما. ما بين خطوة وخطوة كانت اللغة تتبدَّل وطريقة تصرفي تتغير؛ إذ كنت أتبع قواعد سلوكية مختلفة، ودون أن أعي ذلك أو أشعر بأنه مشكلة كنت أجدني مُحاطًا بأشكال وروائح وأصوات وأشخاص وألوان ليست موجودة خلف عتبة البيت.

مع أن هذه الأمور المختلفة كانت مألوفة لي مثل بشرتي، فإن هذا العالم كان له أثر سحري على أصدقائي، إن لم أكن مُخطئًا في تصوري، وكان انبهارهم بهذا العالم يتضح في تفضيلهم اللعب في بيتنا. ربما كان السبب في ذلك هو الفضول الذي يبعثه الغريب، وربما كانت تلك القوانين المختلفة التي سادت في عالمنا والتي كانت أكثر مرونة لنا ونحن أطفال. لم تكن هناك غرف ممنوع علينا دخولها، ولا مواعيد مُحددة للطعام، ولا والدان يتدخلان في كل شيء، فقط بضعة إخوة لم يمثلوا إزعاجًا قط لأنهم كانوا يكبروننا سنًّا ولديهم أمور شائقة تشغلهم عنَّا مثل: الصديقات والحفلات وكرة القدم وموسيقى الروك. عدا ذلك كان البيت والحديقة ملكنا. لا أعرف — ولم أفكر وقتها أيضًا — إن كانت ظروف حياتنا إيرانية تقليدية، ولكنها على أي حال كانت مختلفة عن حياة أصدقائي الذين كانوا يشعرون بذلك الذي كنت أشعر به. وقد كبرت وكبر معي هذا الوعي بأنه يوجد هذا وذاك في الداخل والخارج، واليوم لديَّ شعور بالفخر بأن هذا الأمر ميَّزني عن أقراني. لم أحتج قط إلى توضيح أن ما هو موجود ليس كل شيء. لم يكن هذان العالمان منفصلَين كلٌّ

منهما عن الآخر انفصالًا تامًّا؛ إذ كان يوجد لقاء في أول يوم في المدرسة، واحتفالات بأعياد ميلاد الأطفال، وأيام مخصصة ليقابل أولياء الأمور المدرسين، وزيارات من والدَيَّ في ساحة كرة القدم، وفي كل تلك المناسبات كانت تختفي الخطوط الفاصلة. كنت أتكلم الألمانية وفي الجملة التالية عندما أوجه الحديث إلى والدَيَّ كنت أتكلم الإيرانية بلهجتي التي تجمع ما بين أصفهان الإيرانية وزيجرلاند الألمانية. كان ذلك في بعض الأحيان غريبًا، لكنني كنت أجده أمرًا عاديًّا: فعلى سبيل المثال كنت أخاطب والديَّ بصيغة «حضرتك» وليس «أنت»، وهو الأمر الذي لم يعد ممكنًا فعله دون أن يتعرض المرء لسخرية الآخرين، لذلك كنت أجتنب آنذاك مخاطبة والديَّ بالألمانية أمام الناس. كنت بطبيعة الحال أتحدث إليهما بالألمانية عندما يكون أصدقائي حاضرين وأكون مضطرًا إلى ذلك، إلا أنني لم أكن أخاطبهما لا بـ«حضرتك» ولا بـ«أنت»، كنت أبحث عن صياغات غير مباشرة، لأنني لو لم أفعل لاضطررت دون ارتياح لأن أخاطبهما بـ«أنت». ولكنني لم أكن لأخاطبهما بـ«حضرتك»، وخصوصًا في وجود أصدقائي. كيف كانا سينظران إليَّ لو قلت لهما: «بابا، تعال لتصطحبني من ملعب الكرة في تمام الثالثة؟» لم يتعلق الأمر بوجود إجبار على أن أخاطبهما بـ«حضرتك»، أو أنني كنت أود أن أخاطبهما بـ«أنت» ولكنهما لم يسمحا بذلك، بل كان الأمر طبيعة عندي مثل ارتداء البيجاما قبل النوم. ولم أجد في الأمر حرجًا أيضًا؛ لذلك لم أجعله سرًّا أنني أخاطب والدَيَّ بـ«حضرتك». أذكر أنني حدثت أصدقائي عن ذلك، ليس بوصفه اعترافًا بل أمرًا طريفًا. عندما أحاول اليوم استيضاح الأمر أكتشف أن طرافة الأمر تمثلت في أن المجالين — الداخلي والخارجي — اللذين تحدثت عنهما كانا يتداخلان معًا عندما كان والداي يتواجدان في ملعب كرة القدم أو فناء المدرسة، حيث كنت أضطر لاستخدام ميثاقَي شرف التعامل وطريقتَي التصرف في الوقت نفسه، مع أنهما كانا في المعتاد منفصلَين كلٌّ منهما عن الآخر تمام الانفصال. لم يكن هذا هو الوضع الاعتيادي، ولكنه لم يكن أيضًا وضعًا سيئًا، بل كان فقط في بعض الأحيان طريفًا بعض الشيء.

لا أريد أبدًا ادعاء أن كوني غريبًا لم يمثل لي يومًا مشكلة؛ فقد كان هذا لا يمثل مشكلة كبيرة بصفة خاصة؛ فقد كنت على سبيل المثال أقل تنظيمًا من باقي الأطفال، وكنت أشعر أن هذا يتعلق بوالدَيَّ بصورة أو بأخرى، فلم تكن حقيبتي المدرسية يومًا مرتبة مثل حقائب أقراني، ولم تحظَ كراساتي بنفس الاعتناء الذي تمتعت به كراسات زملائي، ولم يكن لي يومًا عُلب طعام مدرسية جميلة مثل أصدقائي الألمان. كانت أمي تضع شطائري في الأكياس البلاستيكية التي تُحضر فيها ما تشتريه من الصيدلية مثلًا أو من

محل مستحضرات التجميل. ذكرت من قبل أن حياتنا اليومية في البيت لم تكن تسير تبعًا لنظام دقيق وخطة زمنية محددة مثل أصدقائي، والأمر الذي كنت أراه جيدًا هو تمتعي بحُريات أكثر منهم، إلا أني كنت أرى في ذلك عيبًا أيضًا في بعض الأحيان. كنت أتمنى في بعض الأوقات أن أحصل على شطائر موضوع عليها الزبد بدقة، ومُقطعة وكأنها قيست على المسطرة، وأن يكون لي أيضًا عُلب طعام مدرسية جديدة، ولكن لم يكن من الواقعي تمامًا أن أنتظر ذلك من أمي، ويتعلق هذا أيضًا بحقيقة أننا أتينا من ثقافة أخرى لا تعرف هذا النظام ولا هذه الدقة، ولا تعرف أيضًا تلك النظافة التي تشبه نظافة المستشفيات، وهذا التنظيم الدقيق لليوم. لذلك كانت تمر بي أحيانًا لحظات أرى فيها في اختلافي هذا عائقًا، إلا أن تلك اللحظات لم تكن مؤثرة جدًّا. في سن السابعة كنت أشعر بأن هندسة السندوتشات تلك أمر مهم إلا أنه ليس بالأمر الأساسي.

فكرة أن الناس يمكن أن يعيشوا في الوقت نفسه في ثقافات وولاءات وشخصيات ولغات مختلفة ما زالت تُثير الدهشة في ألمانيا حتى اليوم على ما يبدو، على الرغم من أن تاريخ الثقافات يُثبت أن هذه كانت غالبًا القاعدة وليس الاستثناء. في إمبراطورية هابسبورج أو في الدولة العثمانية، وحتى وقت قريب في مدن مثل سمرقند أو سراييفو، وحتى اليوم في أصفهان أو لوس أنجلوس؛ كانت أو ما زالت المجتمعات التي تتواجد بصورة متوازية لا تمثل شبحًا مفزعًا، وإنما أتاح الوضع للأقليات أن تعيش — إلى حد ما — دون مضايقات، وأن تحافظ على ثقافتها ولغتها. دون ذلك ما كنا لنجد اليوم مسيحيين في الشرق الأوسط، أما تلاشي تلك المجتمعات الذي نراه اليوم فإنه يتعلق بتلك النزعة المشئومة لدى مجتمع الأغلبية أحيانًا وأحيانًا أخرى لدى القائد أو بضع مئات من الإرهابيين لإنشاء مجتمع موحَّد واستئصال المجتمعات الثقافية الصغيرة.

لا يمكن قصر هذه النزعة على العالم الإسلامي أو البلقان أو أفريقيا السوداء؛ إذ إنها قد شملت حتى الدولة التي تُعتبر أم التعددية الثقافية: الهند. في عام ٢٠٠٢ حدثت أعمال شغب في ولاية جوجارات الهندية قُتل فيها ٢٥٠٠ مسلم، ثم اتضح بعد ذلك أن الأمر لم يكن أعمال شغب بل مذبحة أُعد لها مسبقًا بدقة وبتنظيم جيد. من السهل عن طريق النقود والخمور تحريك الغوغاء في الهند، لذا فإن أعمال العنف ليست غريبة على المجتمع. الأمر الغريب كان حجم العنف، وأكثر من ذلك حقيقة — والصحافة الهندية تتحدث الآن عن ذلك — أن الحكومة في جوجارات قدمت دعمًا فعليًّا لهذه المذبحة، فقد وقف رجال الشرطة لأيام يشاهدون المذبحة دون أن يحركوا ساكنًا، والأسوأ من ذلك أنهم في أماكن

كثيرة أجبروا الأشخاص الذين حاولوا الهروب على الرجوع إلى حيث احتشدت الغوغاء. بعض أعضاء البرلمان من حزب بهاراتيا جاناتا الحاكم، بل أعضاء في مجلس الوزراء أيضًا؛ كانوا يعطون تعليمات عن طريق هواتفهم النقالة لتحديد الحي التالي الذي يجب أن يُهاجَم من الأحياء التي يقطنها مسلمون. التحقيقات التي أجريت لاحقًا ضد المشاركين في المذبحة ذهبت جميعها سُدى.

لا يُعد حزب بهاراتيا جاناتا حزبًا صغيرًا متطرفًا؛ إذ إنه يحكم عددًا من الولايات الهندية، بل كان قبل وقت قليل هو الحزب الذي يسمي رئيس الوزراء في العاصمة دلهي، وقد يرجع الحزب بعد الانتخابات البرلمانية المقبلة ليعتلي سدة الحكم مرة أخرى. بجانب حزب كونجرس بارتاي العلماني يمكن اعتبار حزب بهاراتيا جاناتا ثاني أكبر قوة سياسية في البلاد. ومن الجدير بالذكر أنه يمكن — ولأسباب وجيهة — اعتبار حزب بهاراتيا جاناتا حزبًا أصوليًّا متطرفًا، بل إن بعض المثقفين الهنود مثل أروندهاتي روي يصفونه بالحزب الفاشي. عندما نقرأ الأخبار يمكن أن نعتقد أن الهند يتهددها خطر التطرف الداهم، بيد أن الانطباع داخل البلاد مختلف تمامًا عن ذلك. يوجد بالطبع متطرفون، بل إنهم يشكلون الحكومة في جوجارات التي يسكنها ما لا يقل عن ٦٠ مليون نسمة. ووضع الأقليات الدينية هناك — والمسيحية أيضًا — وضع يؤسف له، غير أن التطرف لا يطبع حياة الهنود، ولا يستطيع أن يحصل على أغلبية الأصوات في الانتخابات الوطنية. ما زالت الخطوط الفاصلة بين الهندوسية والإسلام والأديان الأخرى في العادة أكثر تداخلًا مما يمكن للقادة الدينيين في القاهرة أو في روما تصوره على الإطلاق، حتى إن حزب «جي بي جي» في حد ذاته لا يُعد أصوليًّا على إطلاقه؛ إذ يعتبر في جوانب عريضة منه حزبًا برجماتيًّا واقتصاديًّا ليبراليًّا على الرغم من كونه محافظًا. نفس هذا الحزب — حزب جي بي جي — الذي تولى في جوجارات الإعداد الأيديولوجي لمذبحة ضد المسلمين ودعمها عمليًّا هو نفسه الحزب الذي انتخب مسلمًا في عام ٢٠٠٢ ليعتلي كرسي الرئاسة في دلهي. حتى ساسة حزب جي بي جي أنفسهم الذين وقفوا وراء المذبحة في عام ٢٠٠٢ يظهرون اليوم في مظهر المعتدلين، ربما ليس لأنهم قد تطهروا مما كانوا عليه، ولكن لاكتشافهم أن شعارات الهندوسية المتطرفة لن تقودهم إلى النجاح في أي انتخابات ولا حتى في جوجارات. الأمر الذي اكتشفته في رحلاتي المتعددة إلى الهند لم يكن انتشار الأيديولوجية الأصولية العنيفة، ولكن شيء آخر أقل بكثير في ظهوره إن لم يقل في معناه: اكتشاف وإعادة تكوين ما يمكن اعتباره أمرًا خاصًّا، والطموح في تحقيق التجانس والنقاء وعودة النزعة إلى القيم الذاتية.

إننا لا ندرك الأصولية أو حتى عودة الأديان في المعتاد إلا إذا ارتبطت بمطالب سياسية أو بممارسة عنف مادي. تُعد الأصولية في عمومها ومنذ بداياتها في القرن العشرين — سواء في الشرق الأوسط أو في جنوب آسيا أو في الولايات المتحدة الأمريكية — حركة تربط الفرد بنظام محدد المعالم لمجموعة تختلف عن المجموعات الأخرى اختلافًا حاسمًا، وليس من الضروري أن يتسم هذا الاختلاف بالعنف. وتصورات الحياة الأصولية جذابة لأنها تُمد الأشخاص بالأشياء التي يفتقدونها بشدة في العالم الحديث المتعولم: الوضوح والقواعد الملزمة والانتماءات الثابتة؛ أي الهوية.

بالنظر إلى نشأة الهند وحركة استقلالها فإنها تعد دولة لا تتسم بالتجانس، بل بالتعددية واختلاف ثقافاتها ولغاتها وأديانها، ولكن فجأة بدأت محطات التلفاز تهتم بإظهار أن برامجها لا غبار عليها من الناحية الدينية، وتقوم بالدعاية لأماكن سكنية بوصفها تمتاز بعودة الحياة في انسجام كما تراها الديانة الهندية وتعاليمها القديمة في «أسفار الفيدا» و«سفر الفيدانتا». إن مفهوم الحياة الذي تعبر عنه هذه الإعلانات لا تحركه الكراهية؛ إذ إن الكراهية لا تتسق مع تلك الصور المتمناة التي ترسمها صناعة الدعاية الحديثة، وإنما يقف وراء تلك الإعلانات الرغبة في تأكيد الذات والارتباط بالقيم والتدين. على خلاف العلمانية الراسخة التي اتسم بها مؤسسو الدولة الهندية، وعلى خلاف التعددية الأصيلة في شبه القارة الهندية التي يمكن لأوروبا أن تتعلم منها حتى اليوم، فإن أعدادًا متزايدة من الهنود يتطلعون لوجود حضارة هندوسية موجِهة يمكن في ظلها للمسلمين أو المسيحيين أن يصبحوا نجومًا سينمائيين أو قادة اقتصاديين أو حتى سياسيين بارزين، إلا أن هؤلاء النجوم السينمائيين والسياسيين البارزين عليهم ألا يمارسوا طقوسهم الدينية في العلن بينما يتزايد الظهور الهندوسي مع كل قافلة حجيج تصورها كاميرات التلفاز.

كم هي مألوفة لي تلك التطورات! عندما كنت أتحدث إلى رجال أعمال من الذين اكتشفوا دينهم مجددًا، أو أتابع مناقشات حول مدى تعرض ثقافة المجتمع للتهديد، أو أتصفح مجلات يتفاخر نجوم التلفاز على صفحاتها بتدينهم، أو حتى عندما كنت أتجول في المدن وخصوصًا الأحياء الشعبية؛ كنت أجد أحيانًا وأنا في مصر أو إندونيسيا أو في وسط الولايات المتحدة الأمريكية نفس الشعارات الدعائية الدينية المبالغ فيها، ونفس المحطات التلفزيونية الدينية، ونفس نمط الوعظ الديني المنمق والمتفائل؛ قصص التوبة واعتراف نجوم التلفاز الشباب بمدى عظم وحقيقة ثقافة مجتمعهم. ودائمًا التأكيد على أن المرء لا يُكنَّ شيئًا ضد الأشخاص أو الأديان الأخرى، وإنما يسترجع فقط دينه وثقافته.

إن الهوية في حد ذاتها شيءٌ مبسِّطٌ؛ شيءٌ محدِّدٌ مثلها مثل أي نوع من أنواع التعريفات؛ إنها تحديد لما هو في الحقيقة أكثر تنوعًا واختلافًا وتداخلًا. بداية هذا ليس سيئًا، فهو أمر عادي. أقول مثلًا عن نفسي: أنا مسلم. الجملة حقيقية، ولكني حين أقولها أغفل في الوقت نفسه ذكر ألف شيء آخر من الأشياء التي أتصف بها أو أفعلها، والتي ربما تتعارض مع انتمائي الديني، كأن أكون مثلًا أكتب كتبًا صريحة عن الحب الجسدي أو أؤيد المثلية الجنسية. يُعد هذا تناقضًا، فالإسلام يرفض المثلية الجنسية، والقرآن لا يؤيد سرد الحكايات عن الجنس. ربما يمكن إيجاد تفسيرٍ ما يجعل المثلية الجنسية أو وصف الأعمال الجنسية حلالًا من منظور الإسلام، إلا أن هذا الأمر لا يشغلني، فليس لكل ما أفعله علاقة بديني. أرى أنني لا أشعر بأني مقيد في إسلامي تمامًا بسبب مثل هذه الأعمال أو الآراء. ربما يبدو ذلك تناقضًا، ولكنني كبرت مع هذا التدين ومع كل هذه الاختلافات والخروقات والتناقضات. لم يكتب أحد من أسلافي حسب علمي حكايات عن الجنس، إلا أنهم كانت لديهم عادات لم تكن جميعها متفقة مع ما يجب أن يكون. كان بعض أقاربي المسنين مواظبين على أداء الصلاة، إلا أن هذا لم يُثنهم عن تناول كأس الفودكا المسائي. لم يخطر ببال أحد أن يشكك في انتماء مسلم للإسلام لأنه يشرب الخمر، كما لا يمكن لأحد أن يحاول تبرير شرب الخمر تبريرًا إسلاميًّا. الأمر الذي كان مفقودًا هو الوضوح.

سيقول الأصولي: لا يصح هذا، المسلم إما هكذا أو هكذا، أما الآخرون فليسوا مسلمين. والخبير التلفزيوني الألماني يقول لي: أنت لست مسلمًا «حقيقيًّا»، وإنما لحسن الحظ مسلمٌ «معتدلٌ» فقط، لأن المسلم الحقيقي يرفض الديمقراطية، ويرغب في توحيد الدين والدولة، ويعتبر القرآن قانونًا إلهيًّا غير قابل للتغيير أو التعديل. وأنا أرد عليه معارضًا بأمرين: أولًا: أنا أرى وبشدة أن اعتقادي «حقيقي»، وثانيًا: أرجو من الأصولي وخبيره التلفزيوني الألماني أن يتجولا مرة في دولة إسلامية (يجب ألا تكون بالضرورة المملكة العربية السعودية). يمكن تعريف الثقافة الإسلامية والشعر والعمارة والتصوف تحديدًا من خلال التناقض بينها وبين ما يُسمى بالدين الحق، كذلك يمكن تعريفها من خلال إمكانية وجود هذا التناقض وأن المجتمع يتقبله، كما هو الحال في جميع الثقافات الأخرى ولا سيما في الغرب: على المرء فقط أن يطوف مرة في أرجاء كنيسة سيستينا حتى تصيبه الدهشة من وجود الملذات الحسية التي تبدو غير مسيحية، والشهوات الصارخة التي لا تتقبلها الكاثوليكية فحسب وإنما تضعها في مركزها. كما هو الحال في الإسلام، فإن المسيحية دائمًا أيضًا عكس ما يعرِّفه رجال الدين على أنه مسيحي.

نعم، أنا مسلم، لكني أشياء أخرى كثيرة أيضًا. إذن فجملة «أنا مسلم» تكون خطأ — بل تحمل أيديولوجية — عندما أعرِّف نفسي على أنني مسلم فقط، أو يعرِّفني أحد على أنني مسلم وحسب. لذلك فإنه ليزعجني جدًّا أن مُجمل الجدال الدائر حول الاندماج يختصر الأمر كثيرًا إلى قضية مع أو ضد الإسلام، كما لو كان المهاجرون ليسوا أكثر أو أقل من مسلمين، ويترتب على ذلك إغفال جميع الصفات والعوامل الأخرى التي لها أهمية أيضًا: من أين ينحدر هؤلاء المهاجرون؟ وأين نشئوا؟ وكيف تربَّوا؟ وماذا تعلموا؟

لقد أشرت بالفعل إلى أني كنت مدركًا لاختلافي عن الآخرين في المدرسة أو بين أصدقائي، وكذلك كان أصدقائي يدركون أني قد أتيت من بلد آخر، إلا أن الأمر لم يكن فيما أرى أمرًا عظيمًا أو مؤرقًا، لم أكن أشعر بعدم الارتياح لهذا السبب أو بالاضطهاد، أو بتعبير آخر: كوني غريبًا كان في رأيي معلومة وليس حالة. لم يكد يوجد في سلوكي شيء يميزني عن الأطفال الآخرين، أو ربما كان يوجد القليل جدًّا مما كنت أربطه بكوني أجنبيًّا.

كان هذا الوضع في المدرسة، لكنه لم يكن الوضع في كل مكان. اشتركت في اتحاد كرة القدم في سن السادسة، وظللت ألعب فيه حتى حصولي على الشهادة الثانوية: تدريبان في الأسبوع، ومباراة بطولة في عطلة نهاية الأسبوع. عندما أسترجع تلك الفترة يجب أن أقول إنها كانت من أهم وأكثر الخبرات تأثيرًا عليَّ في حياتي؛ فقد تعرفت في اتحاد الكرة على عالم جديد علي، كانت أول غربة لي: لقد نشأت وترعرعت في وسط اجتماعي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة العليا، وكان معظم أطفال الجيران في مدرستي الابتدائية ينحدرون من عائلات ميسورة الحال نسبيًّا، لم يكونوا أغنياء جدًّا، ولكن لم يكن يسكن في منطقتنا تقريبًا أي من أبناء العمال أو أبناء العاطلين عن العمل أو الفقراء، ومن ثم لم يوجد أيضًا أبناء «عمال وافدين»، والأجانب القليلون الذين عرفتهم أو قابلتهم بين الجيران كانوا جميعهم مثلنا أبناء عائلات أطباء إيرانية. بينما كنت على خلاف ذلك في فريق كرة القدم الوحيد الذي يسكن أعضاؤه في حي يُعد من أحياء الأغنياء، أي أن جميع زملاء الاتحاد كانوا ينتمون إلى طبقة اجتماعية أخرى. كنت أشعر بهذا الفرق بيني وبينهم دون أن أستطيع تسميته، فعلى سبيل المثال كانت لهجة التعامل أكثر خشونة، وآباء الآخرين وأمهاتهم لم يكونوا يركبون السيارات المرسيدس بنز، بل السيارات الأوبل ريكورد أو الرينو أربعة. أقل سيارة كان أحد الآباء يقودها عندنا فوق الجبل كانت أوبل سيناتور، وأفخم ما كان والد أحد زملائي في الاتحاد يقوده كانت سيارة فورد تاونوس، هذا إن كانت لديهم سيارة من الأساس. عندما يكون الفرد بالغًا وراشدًا فقد يبدو هذا الأمر غريبًا، ولكنني وأنا في السادسة كان مهمًّا

أن أعرف أن امتلاك السيارة ليس أمرًا بديهيًّا، وأن هناك أطفالًا لا تملك عائلاتهم سيارة. وهؤلاء الأطفال الذين لا يوجد في المعتاد ما يربطني بهم أصبحوا عن طريق الاستمتاع المشترك بكرة القدم زملاء أزورهم في بيوتهم ويزورونني في منزلنا العائلي. إلا أن الأمر لم يستغرق طويلًا حتى أصبح وضع والديَّ المالي الجيد لا يمثل ميزة في اتحاد الكرة، وكان الوضع فيما أرى أشبه ما يكون بالمحرج لأنني شعرت لأول مرة أنني لا أنتمي حقًّا للمجموعة، على الأقل في البداية.

في المعتاد كانت والدتي تأخذني إلى التدريب، أو يوم السبت إلى مكان عقد المباريات أو على الأقل إلى نقطة الالتقاء، حيث نتقابل لننطلق معًا إلى المباريات الخارجية. حينها لم يكن الاختلاف ملفتًا، لأن أمي كان لديها سيارة فولكس فاجن. ولكن عندما كان أبي يوصلني بسيارته البنز، كان هذا يبدو غريبًا. فضلًا على ذلك كانت هناك كلمات أو جمل معينة أعرفها لكنني لا أستخدمها، وكان يوجد أيضًا أسلوب يتقنه الآخرون لكني لم أتقنه؛ كانوا أجرأ مني، أو على الأقل هذا ما ظننته، كانوا أكثر رجولة كما لو كانوا رجالًا حقيقيين. لو لم أكن أجيد اللعب لواجهت مشاكل بسرعة، ولكن لحسن الحظ كنت ألعب جيدًا جدًّا. كان لي مكاني الثابت، ولذا تقبلني الآخرون. كان بيننا عادة اثنان أو ثلاثة ممن لم يحظوا بقبول الآخرين، ولذا لم يكونوا يستمرون طويلًا، وهؤلاء دائمًا لا يصمدون في الملعب. أي أن الاعتراف الاجتماعي كان يتحدد بالدرجة الأولى عن طريق الإنجاز، وكان هذا أمرًا شاقًّا إلا أنه لم يكن غير عادل، فقد كنا في آخر الأمر لاعبي كرة قدم. لم أشعر إذن بأنني غريب عن المجموعة، وبعد أن أصبحت واحدًا من أعضائها لم أشعر تمامًا بأنني مستبعد بسبب نشأتي الاجتماعية. إلا أنني بقيت غريبًا، ليس لأنني مسلم، ولكن لأنني من بيت ميسور الحال له وضع اجتماعي. عندما كنت أزور هذا أو ذاك من زملاء الفريق، كنت أشعر أن زيارتي لهم رحلة إلى الخارج.

كثيرًا ما يشتكي البعض من قلة رغبة المسلمين في الاندماج في المجتمع الألماني. ومَن يلاحظ مستوى الأداء السيئ لكثير من أطفال الأتراك عند دخولهم المدرسة، أو يعرف وضع كثير من الأمهات التركيات اللاتي يكدن لا يشاركن في الحياة العامة؛ فلن يعتبر تلك الشكوى ببساطة من باب معاداة الأجانب. إلا أن الأسباب تبدو لي — على الأقل جزئيًّا — بسيطة: معظم المسلمين في ألمانيا — وهم من الأتراك — ينحدرون من مناطق ريفية قليلة التطور، وهذا ينسحب على جيل المهاجرين أيضًا، أي أن هجرتهم إلى ألمانيا كانت بمنزلة رحلة كبيرة عبر الزمن. إن صعوبات التعود على الحياة في عالم المدينة الصناعية، وآليات

الدفع النفسي التي تأتي كرد فعل على تلك الصعوبات؛ تكون إلى حدٍّ بعيد هي نفس الآليات التي يمكن ملاحظتها في ظاهرة الهروب من الريف إلى الحضر في العالم الإسلامي.

ليست كل المشاكل التي تظهر في الحياة مع المسلمين — المجتمعات المتوازية وانحدار المستوى التعليمي والتمييز ضد المرأة — لها أسباب دينية، إذ إن جزءًا كبيرًا من تلك المشاكل لا يمكن تفسيره تفسيرًا دينيًّا، لأن له أسبابًا اجتماعية. وهذا يعني أيضًا أن جزءًا كبيرًا من هذه المشاكل لم يكن ليظهر لو كان معظم المهاجرين المسلمين قد جاءوا من مُدن. لذلك يلاحظ البعض متعجبًا أن المهاجرين الذين أتوا من لبنان أو إيران، والذين يبلغ عددهم الملايين على مستوى العالم، يدخلون عادة في صفوة أهل العلم والاقتصاد في وطنهم الجديد. ففي ألمانيا وفي دول غربية أخرى يمثل الإيرانيون أكبر حصة من الأكاديميين مقارنة بجميع شرائح السكان الأخرى، وهذا لا يرجع بالتأكيد إلى ارتفاع مستوى ذكائهم عن المتوسط (وهذا ما يؤكده المواطنون الإيرانيون دائمًا)، ولا إلى ابتعادهم عن الدين (وهذا ما يدَّعيه كثيرًا المواطنون الألمان عندما يعتبرون المسلمين، الذين لا يربطون عقيدتهم بمظاهر خارجية أو قواعد، غير متدينين)، والسبب في ذلك هو ببساطة انتماؤهم في وطنهم القديم إلى تلك الطبقة المتميزة. إذن فليس من العجيب ألا تواجههم مشاكل في التأقلم مع محيطهم الاجتماعي الجديد إذا نظرنا إلى محيطهم القديم، إذ إنه يشبه الجديد إلى حدٍّ بعيد.

وأنا طفل كنا نسافر كثيرًا في الصيف إلى أصفهان لزيارة أقاربي، ولأننا كنا نقوم بذلك دائمًا كنت أجده أمرًا عاديًّا، كما كان عاديًّا أن يقضي الآخرون الصيف على ساحل بحر الشمال. ولم أكن أشعر بأنني «عُدتُ» إلى وطني، كما لم أكن أشعر بأني غريب هناك. طرق التعامل والعادات المتبعة عند أقربائي كانت في مجملها نفس الطرق والعادات المتبعة في بيت والدي في ألمانيا. كان هذا ينطبق على احترام الأكبر سنًّا، وهو الأمر الذي كان ملزمًا لنا ونحن أطفال، كذلك كانت أيضًا أحداث اليوم التي لم تكن منظمة دقيقة بدقيقة، فضلًا على الحريات التي كنا نتمتع بها ونحن أطفال. أعرف اليوم أن تلك الألفة التي شعرت بها كانت تتعلق أيضًا بالوسط الاجتماعي لأقاربي، فقد كان جميع أعمامي وأخوالي أطباء أو يعملون في مجال مشابه، لذا كنت أعيش لديهم في نفس المستوى الاجتماعي للطبقة المتوسطة العليا، وكان لديهم غرف طعام وأرائك وغرف أطفال وأجهزة ستيريو وأجهزة تجميد وسجاد وأصابع البطاطس المحمرة وعرائس بيج جيم. كنت أعيش في محيط يشبه تمامًا بيتنا في ألمانيا. ولكن عندما كنا نخرج للتجول في المدينة وفي السوق وفي الضواحي، كان هذا بمنزلة عالم آخر؛ الصناع والتجار والأطفال الصغار بأحذيتهم المثقوبة، والأمر

الوحيد الذي كنت أشاركهم فيه هو اللغة، والفرق الذي كنت أجده مأساويًّا بصورة خاصة كان يتضح عندما نسافر إلى أرضنا الريفية يوم الجمعة، ففي كل مرة كنت أُفاجأ بأن بيت الرجل الذي يرعى لنا الأرض خالٍ من الأثاث، كان الجميع يجلس على السجادة. وكان له أيضًا أطفال في مثل عمرنا، إلا أنه لم يخطر ببالنا قط أن نلعب معهم. هناك كنت أشعر بأنني خارج بلادي، ولم أكن وحدي الذي أشعر بذلك بل أيضًا أبناء وبنات عمومتي الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة في أصفهان. كان هذا الموقف يشبه ما حدث وقتها عندما دخلت في اتحاد كرة القدم، ولكنه كان أكثر حدةً لأن الفوارق الاجتماعية في إيران أشد حدة منها في ألمانيا.

لماذا أحكي هذا كله؟ لأني أريد أن أقول إن هناك فوارق أخرى يمكن أن تكون في معظم الأحيان أكثر تأثيرًا من لون البشرة أو الدين. وكذلك لأني أفكر في أن الفقر أو الغنى والمدينة أو الريف ومتعلم أو غير متعلم — على سبيل المثال — كلها عوامل تجعل الإنسان — إذا لم يكن يعيش في دولة عنصرية — يتعرض للتمييز أو يتمتع بالتفضيل أكثر من عاملَي الجنسية والعقيدة. أنا لا أدَّعي أنه لا توجد صراعات ثقافية، ولكني أعتقد أن أكبر عامل فاصل في المجتمع أو بين المجتمعات المختلفة لا يزال العامل الاقتصادي، حتى إن تزايد التعبير عن الصراعات الثقافية باستخدام مفردات ثقافية ودينية. إن الأفق الفكري والاجتماعي وحتى الديني لعائلة برجوازية في الرباط أو كوالا لامبور أو ريو دي جانيرو، مثل الكتب والموسيقى والأفلام والبرامج التلفزيونية والموضوعات التي تُناقَش في إطار من الخصوصية والسيارات وقطارات الأنفاق والأفكار السياسية المتشددة والمخدرات والمهن والعلاقة بين الجنسين وحاليًّا أيضًا وجبات الطعام؛ هذا الأفق أقرب إلى أفق أسرة أوروبية من نفس الوسط الاجتماعي مقارنة بأفق فلاح أو أحد قاطني الأحياء العشوائية الذي يسكن على بُعد عدة دقائق بالسيارة. لا أقول هذا مادحًا في حياة المدينة أو التقدم التكنولوجي، بل العكس هو الصحيح: هذه النتيجة تشتمل على شيء من التعميم، بما يجعل الصور القديمة المفزعة لصناعة الثقافة وللحياة الحديثة فيما يشبه القطيع تبدو وكأنها رومانسية. إلى جانب أنها لا تغفل حقيقة أن التطرف السياسي، سواء أكانت صبغته قومية أم اجتماعية دينية، في كل الأحوال تقريبًا ينشأ ويقوى في المدن الكبيرة. ينطبق هذا بوجه خاص على الإسلاماوية التي لا يقل تأثر أتباعها بالثقافة الغربية عادة عن تأثر معارضيهم العلمانيين بها أو تأثر قادتها المثقفين الذين كثيرًا ما يستندون بصورة مباشرة إلى كُتَّاب غربيين من مناهضي التنوير أو من كتاب ما بعد الحداثة. ربما تقوي عملية تعميم نماذج الحياة تلك الطموح في التشبث بما يتبقى من الصفات أو حتى بما يُتخيَّل منها.

إننا نميل بالطبع إلى التحديدات والترتيبات؛ أي التعريفات. يُعرِّفني شخص آخر على أنني مسلم، أو ربما على العكس من ذلك يُعرِّفني من وجهة نظره على أنني لست بمسلم حقيقي لأنني أفعل هذا الأمر أو ذاك، مما يتعارض مع الإسلام في رأيه. وأنا لا أنكر تمامًا وجود التناقض، وأقول فقط إننا كلنا متناقضون أيضًا، فكل شخصية تتركب من عدة هويات مختلفة ومتغيرة. وإذا تصور المرء أن يتصرف في كل ما يفعل أو يفكر أو يشعر بوصفه ألمانيًّا، فقط بوصفه ألمانيًّا وهو يتصرف أو يأكل أو يحب، أظن أن هذا سيكون أمرًا فظيعًا.

فقبول هذا الأمر أو ذاك هو إذن أمر طبيعي. يبدأ الخطر عندما تكون هوية واحدة هي المحدِّدة، عندما يصبح المرء فقط مسلمًا أو مسيحيًّا أو ألمانيًّا أو إيرانيًّا أو حتى من مشجعي أحد نوادي كرة القدم أو أحد نجوم موسيقى البوب. عندها يتحول هذا التحديد البرجماتي الذي يختصر جميع إمكانات التعريف إلى تشويه حقيقي للشخصية. والأمر الذي يدعو أكثر إلى التفكير هو أن إيجاد الشخصية يحدث من خلال وضع حدود تميزها عن الهويات الأخرى. لا يوجد ما هو ذاتي إلا إذا وجد ما هو آخر. وهذا يُعد أيضًا أمرًا عاديًّا. وهنا تحديدًا، عند تشكيل ما هو ذاتي للمرء وما يتصف به الآخرون، يكمن العنف. فالأرمن في إيران، على سبيل المثال، الذين كانوا يرون أنفسهم كأمر بديهي إيرانيين، وجدوا أنفسهم فجأة مع قيام الدولة الإسلامية مستبعدين من الهوية الإيرانية. بالطبع أكد القادة الجدد على أن اليهود والمسيحيين لهم جميع الحقوق، إلا أنها قد أصبحت الآن حقوق أقليات. فالأمة نفسها أصبحت تعرف نفسها الآن عن طريق الإسلام.

هذا يشبه ما يحدث للمسلمين في ظل القومية الهندوسية. «نحن ليس لدينا أي شيء ضد المسلمين»، كثيرًا ما سمعت هذه المقولة في الهند. ولكن فجأة أصبح هناك «نحن» هندية وهذه الـ «نحن» ليست إسلامية، وفجأة أصبح هناك «هم» و«نحن» ليس لدينا شيء ضد «هم». كان هؤلاء المسلمون يشعرون حتى الأمس القريب بأنهم هنود مثلهم مثل الهندوس. وكم أسمع في ألمانيا قول «نحن» ليس لدينا شيء ضد المسلمين. أو كما يرد في جميع البرامج الحوارية عن الإسلام: كيف يمكن أن نتعامل «نحن» مع الإسلام، هل يجب أن نشعر «نحن» بالخوف من المسلمين؟ ويبدو أن ضيوف البرامج الحوارية لا يفكرون تمامًا في أن هذه الـ «نحن» قد يندرج تحتها مسلمون أيضًا. لا توجد نية سيئة وراء ذلك، على الأقل ليس دائمًا. «نحن» معشر الألمان يجب أن نفتح حوارًا مع المسلمين، حسب قول أصحاب النوايا الحسنة. وهذا أمر يستحق الثناء، ولكن هذا يعني أيضًا لقرابة الثلاثة ملايين شخص في هذا البلد أن عليهم أن يفتحوا حوارًا مع أنفسهم.

أيديولوجية برجوازية

مَن يتسوق في «هايبر وان» يجب أن يمتلك سيارة. يقع «هايبر وان»، مثله مثل غيره من مجمعات التسوق التي تُقام في أنحاء القاهرة، على شارع متعدد الحارات يؤدي إلى خارج المدينة، ولا تجرؤ عربات «الكارو» التي تجرها الحمير على ارتياد مثل هذه الشوارع، بينما لا تزال جزءًا من صورة المدينة في وسط البلد. أما السيارات القديمة والمستهلكة غالبًا التي تقف في ساحة انتظار السيارات فتُظِهر أنها السيارة الأولى لمالكها. هذه الصفة الخارجية المميزة لتلك المجمعات، أما الصفة الأخرى فتتجلى في المسجد المبني على طراز «الحركة المستقبلية» الملحق بمبنى المجمع المربع الشكل. بدءوا في الولايات المتحدة الأمريكية في تزويد مجمعات التسوق بكنائس، وفي الهند بمعابد، حتى هذا الفرق بدأ يتلاشى مثل السيارات التي تزداد أناقة. المهم في الأمر هو معابد التسوق: هنا الخلاص، هنا الدخول إلى عالم ما وراء شاشة التلفاز. يوجد أمام مجمع التسوق تمثال لعربة تسوق بحجم بيت سكني. تكاد جميع النساء يرتدين حجابًا سابغًا، وكثير من الرجال ملتحون. تروج شركة ستيلا للبيرة لجعة شعير «الملت» على لوحات إعلانية مضيئة موضوعة في ساحة انتظار السيارات. عندما يُرفع الأذان للصلاة تتوقف موسيقى المصعد ذات الطابع الجنوب أمريكي.

يقرأ المرء كثيرًا، أو يدَّعي ببساطة، أن الفقراء وغير المتعلمين يميلون إلى التوجه الديني، وأن الأصولية تعبير عن الظلم والقهر وهبوط المستوى الاجتماعي والجهل. غير أن إدراكي للوضع يخالف ذلك. تتكون حشود الغوغاء التي تشارك في أعمال العنف ضد الأقليات الدينية أو في أعمال التصفية الجسدية أو الاعتراض على رسوم كاريكاتيرية في بلد بعيد مثل الدنمارك بكل تأكيد من أشخاص من الطبقات الاجتماعية الدنيا، إلا أن أيديولوجية تلك الاعتراضات تكون برجوازية. إلى جانب أن الإرهابيين — أي الأشخاص الذين لا يتصرفون

بصورة تلقائية، وإنما يقررون بوعي استخدام العنف كوسيلة للجدل السياسي — يأتون في كل الأحوال تقريبًا من الطبقات الوسطى. الأشخاص الأكثر فقرًا يمدون بالشرعية ويمكن في بعض الأحيان تحريكهم بوصفهم القاعدة العريضة هنا وهناك، وذلك عادة باستخدام المال، وفي بعض الأحيان بالخمر، ودائمًا بحُجة أن الآخرين هم المتسببون في وضعهم المزري؛ ولكن عندما أسير في الأحياء التقليدية والأحياء البسيطة، أو أذهب إلى الريف سواء في مصر أو الهند أو إندونيسيا، فإنني لا أجد أن الكثير قد تغير، فهناك كان الناس دائمًا متدينين وفي كل مكان تجد نفس كرم الضيافة والمعاملة الطيبة للأجانب.

أما الحجاب — حتى نبقى في الحديث عن الدول الإسلامية — فلم يزدد انتشارًا في القرى، وإنما في البنايات السكنية العالية وفي ضواحي المدن وفي مجمعات التسوق وفي ماكدونالدز. وهذا ما ينطبق أيضًا على التصورات الأخلاقية: فسيدات الأعمال هن من ازددن تزمتًا لا الفلاحات، ولم تعد النقابات وحدها هي التي تطالب فجأة بمنع جميع الأوصاف الإباحية في الأدب وصولًا إلى «ألف ليلة وليلة»، بل أصبحت نقابة المحامين والجامعات تطالب أيضًا بذلك.

تنتشر المسيحية الإنجيلية في جميع ربوع القارة الأمريكية، وفي غضون بضع سنين سينضم أمريكيون جنوبيون للجماعات الكاريزمية أكثر من أتباع الكنيسة الكاثوليكية، وذلك لأن جاذبيتها لا تظهر في أقوى صورها على من يُسمَّون بالأشخاص البُسطاء وإنما على الموظفين والمدرسين وربات البيوت ورجال الأعمال. لذلك نرى ظاهرة مشابهة في الهند، حيث تتمسك بالدرجة الأولى الطبقات المتوسطة بثقافاتها الخاصة بصورة متزايدة، وهذه الطبقة تتكون من الأشخاص الذين تغيرت حياتهم تغيرًا كبيرًا بسبب العولمة.

هذا يعني أنه حالما تنتهي النماذج الثابتة للهوية كما يحدث بفعل العولمة، تنشأ نزعة إلى التشبث بشيء ما يُعد خاصًّا أو ادعاء صفة تميز المرء عن الآخرين. يعود المرء إلى ما يتصور أنه كان عليه من قبل وإن كان لم يعشه في حياته قط. والحقيقة أن المرء لا «يعود» لأنه لم يشارك في تلك الثقافة قط، بل لأنه لم يشارك فيها الوالدان ولا حتى الجدان أيضًا. إن طريقة الحياة الخالصة والمنقولة والأصلية والواضحة والتي لا يوجد بها أي تناقضات — وهذا ما تدعيه جميع الأصوليات — لم تكن قط موجودة بهذه الصورة الخالصة، إنها فقط تصور مثالي.

لقد كتبت أن العودة إلى الجذور يمكن ملاحظتها بالدرجة الأولى في الطبقات المتوسطة التي تتعرض حياتها لأقوى تغييرات وتأثيرات غريبة في ظل العولمة، إلا أنه يمكن للمرء

أن يزيد في ذلك فيقول: هناك توافق في معظم الدول بين هذا التدين السلطوي، وإن كان غير سياسي، والنظام الاقتصادي الليبرالي البحت، بل إن هذا التدين يبدو من الناحية الاقتصادية أنه يتواكب بصورة حتمية مع السوق الليبرالي. يمكن مشاهدة ذلك أوضح ما يكون في المملكة العربية السعودية، حيث يسود أكثر تأويلات الإسلام تزمتًا من ناحية ويسود من ناحية أخرى اعتقاد في الرأسمالية والاستهلاك والتقدم التكنولوجي، إذ لو قورن بالحزب الديمقراطي الحر في ألمانيا لبدا الأخير بجانبه وكأنه حزب من اللينينيين القدامى. تحديدًا بجوار الكعبة يُنشَأ الآن أكبر مجمع تسوق في الشرق الأوسط، وكل ماركات الاستهلاك العالمي ستكون ممثلة بفروعها فيه من بنيتون وصولًا إلى دايملار بنز. وللمبنى أبعاد ضخمة تجعل الحرم يبدو بجواره وكأنه ساحة لعب للأطفال. ولا يحمل واضعو التصميمات المعمارية همَّ الحفاظ على المدينة القديمة، إذ حُولت أجزاء منها إلى ساحات تابعة للحرم وهُدم ما تبقى منها منذ أمد بعيد. لا أحد يقطع ما بينه وبين ماضيه بصورة متطرفة مثل ما تفعل الجماعات التي ترغب في العودة إلى الماضي.

كثيرًا ما يُقال إن ما يُسمى بصراع الثقافات لا تدور رحاه ببساطة بين الإسلام والغرب، وإنما يسير مجراه في وسط الإسلام نفسه. هذا صحيح ويمكن الاستدلال عليه بكثير من الأمثلة. لم تقوَ شوكة القوى الأصولية في العالم الإسلامي وحدها، بل قويت أيضًا القوى المُضادة التي تُمثل نموذج المجتمع العلماني، أو حتى التي تسوق له ببراهين دينية. بالتأكيد لا ندرك وجودها إلا نادرًا؛ نظرًا لأنها لا تمثل تهديدًا، ولا تلفت النظر إليها عن طريق حشد المظاهرات الضخمة أو القيام بأعمال العنف (إلى جانب أننا أيضًا لا ندرك وجودها عندما يتظاهر في باكستان مئات الآلاف مطالبين بالديمقراطية، وهذا عدد لم يصل إليه الإسلامويون في باكستان في مؤتمراتهم الشعبية). نعم، الصراع الحقيقي حول الإسلام يدور داخل العالم الإسلامي نفسه. بطبيعة الحال تجري مناقشته في علاقته بالغرب، أي في ضوء السؤال عن الموقف الذي يجب على الإسلام أن يتخذه من الغرب، وخصوصًا فيما يتعلق بقيمه وإنجازاته، مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والعلمانية. الغرب هو الآخر الذي يرسم المرءُ الحدودَ التي تفصله عنه، أو الذي يتخذه المرء معيارًا ليتمكن من تحديد موقعه. أي أن الأمر يدور حول الإسلام في حد ذاته ويتعلق بمجتمعه.

أوروبا مُستثناة من هذا التطور؛ هذا ما يبدو. يدور النقاش بالتأكيد هنا وهناك عن عودة الدين والتهديد الذي يمثله ذلك لنظام المجتمع الليبرالي. لكن المرء يغفل أن الأديان في خارج أوروبا لم تختفِ قط من الحياة العامة. إن العولمة التي تتخطى حدود الفصل

بين الدين والدولة، والتي تسببت فعليًّا في فقدان شامل لمعنى الأديان النظامية، أو بعبارة أشد ذلك الجمود الديني — تُعد ظاهرة تنفرد بها أوروبا. بهذا المفهوم الأوروبي لا تُعد الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا دولة علمانية. عندما نتحدث عن الغرب العلماني، فإننا نعني بذلك أوروبا الغربية. بينما في اليونان وفي البلقان بل حتى في بلد الجوار بولندا تقوم الأديان بدور سياسي جوهري وحاسم في الحياة العامة. يُفهم مُصطلح حرية الرأي في هذه الدول فهمًا أضيق بصورة واضحة، وتتعامل المحاكم مع جريمة القدح في الذات الإلهية تعاملًا أكثر صرامة وكثيرًا ما يُقاضَى الفنانون والأدباء الذين يسخرون من المسيحية. إن العودة العالمية إلى الأديان، التي يُعلن عنها في بلدنا هذا، ما هي في حقيقة الأمر إلا اكتشاف أن الأديان في خارج أوروبا لم تختفِ قط.

ولكن هل أوروبا الغربية مُستثناة حقًّا من انتشار خطاب الهوية؟ لا أظن ذلك. يتم لدينا أيضًا — وبصورة متزايدة — تعريف ما هو خاص، ويتم بذلك تثبيته؛ مما يؤدي في الوقت نفسه إلى تعريف الآخر، المُغاير. لا أعني هنا حماس البابا والمشاهير الكُثُر الذين يخرجون من ألمانيا في رحلات الحج أو الذين ينادون بعودة الأخلاق القديمة. مجتمعات غرب أوروبا أصبحت علمانية بدرجة من العُمق — بمعنى فقدان معنى الأديان النظامية — تجعل من المستحيل أن يكون للجانب المذهبي أثر سياسي، وفي بعض الأحيان يكون له على الأكثر صبغة فلكلورية. لذا نجد أن الحماس الديني لا يختلف في عرضه الإعلامي عن أي دفقات حماسية أخرى في ألمانيا. العنوان الرئيسي لجريدة «بيلد تسايتونج» عن يوم الشباب العالمي يعبر عن مُجمل الغرابة التي أصبحت عليها ثقافة الحدث الديني: «أكثر حفلات الرب شبقًا». يحق للمرء أن يفكر في القيم التي يمثلها البابا وفي القيم التي تمثلها صحافة «بيلد تسايتونج» غير الأخلاقية والجنسية والمعادية للأجانب. إنه نوع من الكتابة الحماسية التي لا يضاهيها شيطانية إلا التقارير الصحفية من عصور الديكتاتورية أو الحكم الديني مثلما في إيران. غير أن الأمر لا يتعلق بحال من الأحوال بالمحتوى الذي يمثله بنديكت السادس عشر وبعض مواقفه الغريبة (التي ستبقى غريبة!) مثل خطابه في أوشفيتس الذي اعتبر فيه المسيحيين ضحايا مع اليهود، أو خطابه في البرازيل الذي وعظ فيه الهنود الحمر قائلًا إنهم هم الذين دعوا إليهم المبشرين، فهو لا تثار حوله ضجة في صفحات الفنون والثقافة ولا في تلك المجلات، التي كانت تثير ضجة تستمر أسابيع حول كل ما كان البابا السابق يقوله حول الإجهاض. البابا الحالي يتكلم بصورة أكثر حسمًا وبطريقة مستفزة لنموذج مجتمع علماني يتبع مذهب اللذة ومنفتح على العالم. إلا أن واحدًا منَّا أصبح الآن بابا الفاتيكان، بل نحن أصبحنا الآن البابا. إنه يحقق لنا الهوية.

إن حماس مثقف، لم يكن متدينًا من قبل، للكنيسة الكاثوليكية ليس له أهمية الأصولية الإسلامية للشرق الأوسط أو القومية الهندوسية للهند أو الحركة الإنجيلية للولايات المتحدة الأمريكية. الكنائس لم تمتلئ أكثر مما كانت، وأظن أن البابا لن يعبأ كثيرًا بهذا الدعم الذي مرجعه إلى الإحساس بـ «نحن» أكثر منه إلى الصدق الديني. إذا أراد المرء في أوروبا الغربية أن يُحقق الشعور بـ «نحن»، فإن المسيحية لا تكفي كمرجعية للهوية. إن ما يناسب أكثر لرسم حدود فاصلة عن الثقافات الأخرى — وخصوصًا الإسلام — هو التنوير والعلمانية. يمكن عند ذلك إدخال المسيحية بوصفها عاملًا ثقافيًّا تاريخيًّا، أي باعتبار التاريخ الأوروبي تاريخ الغرب المسيحي. إن «اختبار المسلمين» الذي أُجري في ولاية بادينفورتيمبرج يوضح التطورات الغريبة التي يمكن أن يؤدي إليها هذا الفهم المسيحي للتنوير، إذ رأى الديمقراطيون المسيحيون تحديدًا أن المثلية الجنسية هي الصفة المميزة للثقافة الأوروبية. بالتأكيد لم يكن هدف الحزب المسيحي الديمقراطي التقرب من المثليين، وإنما اتخاذ حدٍّ فاصلٍ عن الإسلام، ولكن على أي حال: إذا كان المسيحيون الديمقراطيون في حاجة إلى المسلمين حتى يعترفوا بالثورة الجنسية، فإن هذا يعني أننا يمكن أن نكون نافعين في شيء ما!

لقد أصبح الآخر الذي يحتاجه المرء في أوروبا الغربية دائمًا حتى يُحدد معالم نفسه يتمثل ليس فقط — ولكن بالدرجة الأولى — في الإسلام. ليس من باب المصادفة أن يكون الجدل الدائر عن التعددية الثقافية جدلًا عن الإسلام، علمًا بأنه ليس جدلًا «مع» المسلمين وإنما «عن» المسلمين بالدرجة الأولى. كان السؤال التقليدي الذي أدار به موقع بيرلينتاوخر الإلكتروني عجلة النقاش العابر لحدود الدول: «من الذي يجب على الغرب دعمه: المسلمون المعتدلون مثل طارق رمضان أم المعارضون الإسلاميون مثل أيان حرزي علي؟» يبدو أن السؤال قد استبعد حقيقة أن طارق رمضان وأيان حرزي علي ينتميان إلى الغرب، وأغفل السؤال أيضًا إمكانية أن يكون شخص ولد مسلمًا ليس إسلامويًّا ولا معارضًا للإسلام. في الحقيقة فإن الأشخاص الذين يظهرون في مثل هذا الجدل أو ما يشبهه من النقاشات التي تحمل أسماءً عربية أو إيرانية أو تركية يكونون دائمًا كُتابًا يرفضون الإسلام، دورهم مثل دور شهود الإثبات للادعاء. يقدم الدفاع هنا وهناك أيضًا شهود نفي في صورة مثقفين مسلمين يؤكدون عدم وجود تعارض بين دينهم والتنوير. إلا أن الشهود يُستبعدون من الحكم. ليس هذا فحسب، بل لا يكاد يوجد عالم واحد في الدراسات الإسلامية يشارك في الجدال. جميع الكفاءات الأخرى نجدها ممثلة في النقاشات — وفي كلا المعسكرين، معارضي

الإسلام وفاهمي الإسلام — سواء الصحفيين أو المؤرخين أو الكتاب أو علماء الاجتماع أو علماء السياسة، ولكن في كل الجدل الدائر في الآونة الأخيرة لم أجد في الحلقات النقاشية في التلفاز ولا في الكتب التي تُجمع فيها المقالات ولا على الصفحات الثقافية في الجرائد أستاذًا واحدًا من أساتذة العلوم الإسلامية الذين يُدرسون في إحدى الجامعات الألمانية، على الرغم من وجود عدد من علماء الدراسات الإسلامية المتميزين في الجامعات الألمانية. إن الاستغناء عن الكفاءات العلمية له منطق واحد: الجدل في غرب أوروبا عن الإسلام ما هو إلا جدل عن أوروبا الغربية نفسها.

وهذا أمر غير مستنكر، فعن طريق الإسلام الذي يقوم بدور الانتماء البديل يمكن بصورة أوضح مناقشة كيف يُنظَر إلى الثقافة الخاصة بأوروبا الغربية، وماذا يعني المرء بمفاهيم مثل الليبرالية والعلمانية والتعددية. كثيرًا ما رأيت كيف تحولت نقاشات حول أوروبا وقيمها في ساحات عامة إلى نقاشات حادة وعاطفية عندما كان يُذكر عنوان مثل انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي أو الحجاب. على الفور تصبح الأسئلة أكثر تحديدًا: هل من الليبرالية أن نسمح للمعلمات المسلمات بارتداء الحجاب؟ هل تعني العلمانية أن تعامل الدولة جميع الأديان بمساواة تامة؟ هل تعني التعددية أن تصبح المئذنة جزءًا من شكل المدينة؟ هل يمكن لدولة إسلامية أن تنضم إلى الاتحاد الأوروبي؟ إن التصور الذي تقوم عليه أوروبا التي ينتمي إليها الإسلام ولو بصورة ضمنية على الأقل يختلف عن تصور تقوم عليه أوروبا التي تُعرِّف نفسها من خلال جذورها المسيحية اليهودية، وتضع حدودًا فاصلة لها عن الإسلام. تحولت القضايا الخلافية للمؤرخين إلى قضايا العصر الخلافية: هل الفلسفة العربية للمسلمين واليهود جزء من تقاليد التنوير الأوروبية؟ هل تقوم أوروبا أيضًا على فكر رواد إسلاميين للحداثة في الفلسفة وفي علم الكلام أو في الأدب؟ هل تدخل إسبانيا الإسلامية أو الدولة العثمانية في التاريخ الأوروبي؟ أم أن عرضها يجب نقله إلى علوم الشرق الأوسط؟ أيًّا ما كانت الإجابة فإن لها، بالنظر إلى تركيبة مجتمعنا، تأثيرات على مستقبلنا.

التعبئة الذهنية التي تتم في أجزاء من المجتمع لا تُخطئها العين. اتخذت التقارير الصحفية عن الإسلام في فرادى وسائل الإعلام منذ فترة طويلة صورة الحملة، وقد حللها العلماء كثيرًا أيضًا فيما يتعلق بلغة الصور المستخدمة فيها: رجال ملثمون ومدججون بأسلحة آلية، وحشود من النساء المنتقبات، وصور من الخلف لفتيات محجبات في أفنية المدارس الألمانية، ووجوه متشنجة وهي تصرخ، ومُصلون في اللحظة التي ينزلون فيها إلى

السجود بحيث تُحدِّق مؤخراتهم مبتسمةً في عدسة الكاميرا. ولإثبات العنف الفطري في الإسلام تقدم المقالات والبرامج والكتب التقليدية دائمًا نفس الاقتباسات من الآيات القرآنية عن العنف، وكأنه لا يوجد سياق تاريخي أو نصِّي تجب مراعاته، بالإضافة إلى أنهم ينتقون من التاريخ المذابح والاضطهاد وحروب الاستعمار التي حدثت بالفعل وبالتأكيد في التاريخ الإسلامي، وبذلك يبدو تاريخ الإسلام وكأنه بيت الأشباح. يتضح كم هو رخيص مثل هذا النموذج إذا قلبناه إلى عكسه: الاستعمار والحروب الصليبية، والإبادة الجماعية للهنود الحمر، ومحاكم التفتيش، وأمر المسيح بالتبشير، والشيشان، والعراق، وصبرا وشاتيلا، وفلسطين، وسريبرينيتشا، والدعاية المسيحية للصرب، والفصل العنصري في جنوب أفريقيا الذي كانت له شرعية حاسمة من الإنجيل، والمحرقة، وحربان عالميتان، وعلى سبيل التغيير حاليًّا أيضًا ساحل العاج أو معارضة المساجد في أوروبا، كل هذا إذا أضفنا إليه بعض الاقتباسات عن الحرب المقدسة من الإنجيل وبعض أقوال بوش وبيرلسكوني، ثم قدمناها إلى مجموعة من كارهي أمريكا حتى يحللوها، فسيصبح لدينا على الفور ما يكفي لإقناع السُّذَّج في العالم الإسلامي بالعنف الفطري في المسيحية. تعمل مختلف المواقع الإلكترونية تبعًا لنفس هذا النموذج عندما تسرد يومًا بعد يوم أين ارتكب المسلمون مجددًا أعمال عنف أو أعمالًا جديدة يبرهنون بها على غبائهم، أو وضعوا أنفسهم موضع السخرية. ومن السهل أيضًا ما تقوم به بعض المواقع الإسلامية يومًا بعد يوم من عرض أخبار سلبية عن أشخاص أو مجموعات أو دول في مكان ما من العالم تقوم بأعمال تتطابق مع صورة العدو التي يرسمها المرء لهم، بداية من اتحادات شركات البترول العملاقة في الشرق الأوسط، مرورًا بالاستغلال الجنسي للأطفال، وصولًا إلى الاعتداء بالعبوات الحارقة على مخيمات اللاجئين أو المساجد. يمكن أن يكون كل خبر صحيحًا في حد ذاته، إلا أن تجميعها بهذه الطريقة يصنع كذبة.

وفي معظم الأحيان تصف أكثر الكتب مبيعًا في أوروبا عن الإسلام مشاكل اجتماعية مُلحة في داخل العائلات المسلمة، دون استخدام إحصاءات ميدانية توضح علاقتها بالعدد الحقيقي للمسلمين، وبذلك تنقل انطباعًا للقارئ بأن وجود جرائم الشرف والزواج القسري والعنف هو القاعدة في العائلات المسلمة، وأن المسلمين المتحضرين والعلمانيين هم الاستثناء. هذا أمر غريب، كما لو كانت دراسة عن المتطرفين اليمينيين في شرق ألمانيا ستعطي انطباعًا بأن جميع الألمان الشرقيين متطرفون يمينيون، أو كأن طبيب عيون سيصل إلى نتيجة مؤداها أن لدى جميع الناس مشاكل في عيونهم. هذا يشبه في ضحالته الفكرية الاقتصار

دائمًا على حصر الحالات التي يتعرض فيها مسلمون في العالم — وخصوصًا في ألمانيا — إلى اضطهاد. بالتأكيد توجد مثل هذه الحالات: عائلات لا تتمكن من الحصول على شقة سكنية بسبب اسمها العربي، أو نساء يتعرضن لأن يبصق عليهن أحدهم في الطريق لأنهن يرتدين الحجاب. وإذا أمعنا النظر، فسنجد كل يوم بعض الحالات المثيلة. ولكن الأمر يصبح هزليًّا إذا اتخذنا هذه الحالات دليلًا لإثبات وجود اضطهاد ضد المسلمين، بل وعقد مقارنات مع اضطهاد اليهود إبَّان العصر النازي كما يحدث أحيانًا. لا تكاد توجد دولة في العالم تتمتع فيها الأقليات الثقافية والدينية بنفس الحقوق بصورة كاملة. إلا أنه بالمقارنة بالدول الأخرى، وخصوصًا الإسلامية منها، فإن الأقليات تتمتع في أوروبا بدرجة عالية من الحرية والتحرر، وهذا ينطبق على المسلمين أيضًا. ولا يعني هذا تقبل الاضطهاد، ولكن على المسلم أيضًا ألا تغيب عن عينيه النِّسَب تمامًا، ويجب عليه أن يعترف بمميزات مجتمعاتنا الغرب أوروبية. نعم، هناك صورة الإسلام العدو، ولكن ما يجب أن يؤرق المسلمين أكثر من ذلك هو وجود إسلام يتصرف وكأنه عدو.

كي نعبر عن ذلك بوضوح أكثر: لقد ألقت الكتابات الناقدة للإسلام التي تحظى بانتشار شعبي — حتى وهي تبالغ أو تعرض صورًا أُحادية — في السنوات الأخيرة الضوء على أوضاع سيئة كان العلم والسياسة يتجاهلانها فيما سبق، وهذا سيبقى المكسب من ورائها. ولكنها في الوقت نفسه — أحيانًا من دون قصد، وكثيرًا مع سبق الإصرار والترصد — كانت تقدم القرائن لمطالب سياسية من شأنها تدمير نظام مجتمعنا الليبرالي. إن التعاطف والترابط المؤسسي اللذين يتمتع بهما أشهر ناقدي الإسلام دوليًّا — مثل أيان حرزي علي أو ليون دي فينتر — مع المحافظين الجدد في شمال أمريكا لهما دلالتهما مثلهما مثل التصفيق الذي يحظى به كتَّاب في ألمانيا مثل هنريك إم برودر أو رالف جيوردانو من معجبيهم من دوائر الإنجيليين ومُعادي الأجانب وحتى النازيين الجُدد. وكونهم يقاومون بطريقة مقنعة محاولات الأصوليين اليمينيين لضمهم إليهم لا يغير شيئًا في أن آراءهم وادعاءاتهم ونماذج اتهاماتهم لا تختلف حتى في اختيار المفردات المستخدمة عن بعضها شيئًا.

أما من يحاول أن يُسمع الآذان ويلفت الانتباه مستخدمًا الحُجج وحتى المعارف العلمية، فإنه سرعان ما سيوضع عليه علامة «المدافع الساذج عن التعددية الثقافية». إذا صدَّق المرء دُعاة صراع الثقافات، فإن العلوم الإسلامية الألمانية تكون قد وقعت جميعها في شرك الإسلاماوية. وقد لاقت الدراسات الألمانية حول الهجرة نفس المصير، بعدما وجهت

في خطاب مفتوح نُشر في جريدة «تسايت» نقدًا ضد الجدل الذي يدَّعي العلمية والذي يدور بين مؤلفي الكتب الأكثر مبيعًا مثل التركية نكلا كيليك، ممن لا يعبئون بالإحصاءات الميدانية المؤكَّدة. إذا انطلقنا مما ورد على بعض الصفحات الثقافية من ردود فعل غاضبة، فإن المرء ربما يعتقد أن الجامعات الألمانية تجري غسيل مخ إسلامي فاشيًّا للطلاب.

من الملاحظ أيضًا أنه حتى قيادة الكنيسة الإنجيلية التي كانت في السابق ليبرالية قد اكتشفت في الجدل حول الإسلام حقلًا مناسبًا لإبراز الذات. لقد سعت الكنائس في ألمانيا — الكنيستان الكبيرتان على وجه التحديد — إلى إدماج المسلمين بفعالية أكثر من مؤسسات المجتمع الأخرى. لقد شجعت الكنيستان الحوار وساندتا مصالح المسلمين الدينية؛ وخصوصًا في أماكن حياتهم في المدن والمحليات بصورة أكبر مما يستطيعه المسلمون، لأنهم بالنظر إلى هياكلهم الاجتماعية كانوا لا يملكون الممثلين المفوهين. حتى اليوم لا تُبنى مساجد إلا إذا دعمت ذلك الطوائف المسيحية التي تعيش في المكان، أو شاركت في التصميم، أو قامت بدور المؤيد للمشروع لدى إدارة المدينة أو على الملأ. كان هذا أكثر مما يمكن لأبناء أقلية من الأقليات أن يتوقعوه من مؤسسات تابعة لدين آخر. كان هذا إنجازًا اجتماعيًّا رائعًا في العقود الماضية، سبقت به الكنيسة الدولة بكثير. وأثَّرت تلك السماحة في حالات كثيرة على الإسلام في ألمانيا، على سبيل المثال يوم المسجد المفتوح، والصلات الكثيرة مع الأشخاص في أماكن حياتهم، وتقليد دعوة مسيحيين إلى الإفطار في رمضان، وكثير غير ذلك. فكرة عقد حوار بين الأديان في حد ذاتها لم تكن بديهية في رأي جماعات المسلمين التي كانت تبعًا لهيكلها الاجتماعي والثقافي جماعات منغلقة إلى حد ما، ذات ثقافة ريفية تركية.

على العكس من الكنيسة الكاثوليكية التي — على الرغم من خطاب بنديكت السادس عشر في ريجنسبورج — تُجري الحوار بين المسيحية والإسلام بحماس كبير، وتتخذ إجمالًا موقفًا متسامحًا ومتفاهمًا من الإسلام في ألمانيا؛ فإن قيادة الكنيسة الإنجيلية في ألمانيا تبتعد عن الإسلام بصورة متزايدة. المنشور الذي نشرته مؤخرًا عن الحوار كان بأقلام كتاب إنجيليين وتظهر فيه لهجة العداء التي لم تكن لتخطر ببال أحد قبل أعوام. في احتفالية يوم الكنيسة التي عُقدت مؤخرًا قابل الجمهور ممثلي الإسلام بالصفير فور اعتلائهم خشبة المسرح. أما رئيس مجلس الطائفة الإنجيلية في ألمانيا الأسقف فولفجانج هوبر، الذي كان يجلس على منصة المتحدثين، فلم يُذكِّر الجمهور بوصية الضيافة، وإنما تسبب بملاحظاته في ازدياد حدة عبارات الاستياء الموجهة ضد المسلمين. وفي المؤتمر الكَنَسي الأخير اقتصر تعريف العقيدة الإنجيلية اليوم إلى حدٍّ بعيد على الفروق التي بينها وبين الإسلام.

يتحمل المسلمون بطبيعة الحال جزءًا من مسئولية تزايد النظرة المتشككة لهم في الغرب. لا أعني بذلك العنف السياسي الذي يرتكبه بعض المسلمين، والأوضاع غير الديمقراطية في معظم دول العالم الإسلامي، ولكن أيضًا الطريقة التي يتصرف بها المسلمون على الملأ. إن أشهر وأوضح مثال لذلك من الفترة القريبة الماضية يوضح ويؤكد في الوقت نفسه صورة الإسلام العدو — هو النزاع حول الصور الكاريكاتيرية الدنماركية المسيئة للرسول محمد. تطورت أحداث الصراع وكأنما كتب مؤلف أفلام سيناريو لصراع ثقافات عالمي. ورد فعل المسلمين في هذا السيناريو يشبه رد فعل الكلاب البافلوفية المعروف بالارتباط الشرطي؛ أي بصورة متوقعة ودون تفكير وبعنف. وكأنهم ينبحون إذا رأوا الإشارة الضوئية ويعضون إذا أُمروا بذلك. لم يدرك قطاع كبير من الرأي العام، وخصوصًا الإيراني والعربي، أن المرء يجب ألا يلجأ إلى العنف فقط لأنه غاضب أو يشعر بالإهانة، وأنه توجد الآن في العالم وفي ظل العولمة طرق سلمية وذات تأثير أكبر بكثير للتعبير عن الموقف. لدى كل مستهلك إمكانية مقاطعة السلع؛ هذه هي لعبة اقتصاد السوق الحرة. لذا نجد أن شركات الإعلام الأمريكية الكبيرة تحديدًا لا تجرؤ على إثارة حفيظة جماعات المشترين المهمة وذلك بالنظر إلى العواقب الاقتصادية الممكنة. لو تصرف المسلمون بهذه الطريقة لكسبوا الصراع لمصلحتهم، وأظهروا فضلًا على ذلك للعالم كله أن رئيس الوزراء الدنماركي عديم المبادئ؛ إذ إنه كان مستعدًا للتخلي عن احتقاره للمسلمين وأن يلوح راجيًا «أرجوكم، أرجوكم الحوار» مع أول علبة جبن «فيتا» امتنع المسلمون عن شرائها عملًا بمبدأ المقاطعة. كان بإمكان المسلمين أن يفعلوا ذلك حتى إن أغضبت المقاطعة أوروبا، وكان بإمكانهم أن يثقوا في أن قطاعات عريضة من الرأي العام العالمي ستتعاطف معهم؛ بما في ذلك كثير من المراسلين الصحفيين من الولايات المتحدة الأمريكية حيث تقدم وسائل الإعلام الجادة تقارير أكثر دقة عن الإسلام. ولكن اتضح مجددًا أن كثيرًا من المسلمين لم يفهموا قواعد اللعبة في العالم الحديث على الرغم من أنهم يعيشون فيه. يمكن للمرء أن يقاطع السلع ويكتب المقالات وينفق الأموال على الحملات الإعلامية ويقوم بعمل جماعي في صورة تكوين «لوبي»؛ ولكن لا أحد يملك الحق في أن يقتحم السفارات وأن يهدد بالقتل. هناك الكثير مما يمكن شرحه في سلوك القائمين بأعمال الشغب (مثلًا استخدامهم من قبل أنظمة ديكتاتورية)، لكن لا مبرر لأفعالهم. لقد أساءوا إلى ميراث الرسول وإلى صورة الإسلام أكثر مما فعلت الرسوم الكاريكاتيرية نفسها. ويوضح ميلها لاستخدام العنف مدى بعد الجماهير العربية عن معايير التمدن والعدالة والاتزان التي تتوقع من الغرب أن يتحلى بها.

على الجانب الآخر من صراع الثقافات كانت هناك جريدة دنماركية تقف على الهامش السياسي اليميني في بلد اتجه في الأعوام الماضية بلا شك إلى اليمين حتى أصبح لديه الآن أكثر قوانين الأجانب تشددًا في جميع دول الاتحاد الأوروبي، كما أعلن رئيس وزرائه مفاخرًا. لم تفلح هذه الجريدة طيلة أربعة أشهر في أن تستفز الجالية المسلمة في الدنمارك استفزازًا حقيقيًّا. على مدار أربعة أشهر أرسلت تلك الرسوم السخيفة مرارًا وتكرارًا حتى وجدت في آخر المطاف الأشخاص المتحمسين الذين تصرفوا بالطريقة التي كانت تريدها الجريدة. الاستفزاز لا يبرر ولا يقلل من حدة رد فعل بعض الأئمة في الدنمارك وفي قطاعات من الرأي العام الإيراني والعربي. عندما يحرك الآخر وشاحًا أحمر أمامي، فهذا لا يعني أنه يجب عليَّ أن أتصرف كالثور الهائج. لكن للأسف يتصرف حاليًّا كثير من العرب والمسلمين مثل الثيران قليلة الذكاء والإدراك عندما يفقدون صوابهم بسبب بعض الرسوم الكاريكاتيرية السيئة.

أي شخص لديه بعض الدراية بالأدب الشرقي يعرف أن فيه كثيرين من الحمقى الذين يسيئون لكل شيء، فعلًا لكل شيء، بما في ذلك الإله والملالي والحكام (بينما يُستثنى الأنبياء — جميع الأنبياء — إلى حدٍّ بعيد)، ولم يكن يوجد بكل تأكيد التزام كامل بتحريم تصوير النبي محمد، ويمكن عمومًا رصد وجود انتهاك دائم للأمور المحرمة أو التابوهات في الحضارة الإسلامية، وتحديدًا في فترات ازدهارها في العصور الوسطى. فأنت تستمع إلى أكثر النكات حدة عن الإسلام في طهران وبيروت أو في إسطنبول، وكثيرًا ما تسمعها من أفواه الملالي وهم يبتسمون ابتسامة ماكرة. أما ما لا يمكن أن تسمعه إلا في أوساط العنصريين في إيران فهو النكات التي تدور حول الأقليات اليهودية والمسيحية، ولن تجد شخصًا يضحك عليها من أولئك الذين يهتمون بالتعايش السلمي للأديان. كما تبرهن دعوة إحدى الصحف الإيرانية القراء أن يرسلوا رسومًا كاريكاتيرية معادية للسامية على أن الرئيس الحالي لإيران والصحافة التي يسيطر عليها لا يهتمون بمثل هذا التعايش السلمي. فهل يجب علينا أن نتخذه مثلًا يُحتذى؟ لا يوجد جميل يمكن للأوروبيين أن يسدوه للإسلامويين أكبر من أن يضربوا بمعاييرهم ومثلهم العليا عرض الحائط. يرفع كثير من المثقفين والصحفيين والسياسيين في أوروبا منذ فترة وللأسف شعار: من اليوم سنرد الضربة بالضربة. إن من يكافح أعداء المجتمع المنفتح عن طريق تخليه عن انفتاحه الثقافي يخسر المعركة بالفعل.

لم تكن الرسوم المسيئة للنبي محمد تكرارًا لحالة سلمان رشدي. فقد كان حق رشدي — الذي لا يقبل الفصال والذي يجب الدفاع عنه دائمًا — أن يعبر عن فهمه للثقافة الإسلامية كما يراها، بل والأكثر من ذلك: إن التعامل بغير اكتراث مع القيم الذاتية

والمرجعيات السلطوية ينتمي إلى عمل الآداب والفنون، حتى إن تسبب ذلك في ازدياد أعداد أعدائها. يُعد رشدي واحدًا في إطار تقليد قديم من الأدبيات في العالم الإسلامي التي تعرضت للإسلام نفسه. كثير منهم دفع ثمن ذلك بالمنع أو بالحبس أو بحياته نفسها.

كان غرض هيئة التحرير الدنماركية مختلفًا تمامًا، فقد حاولت على مدار أربعة أشهر استفزاز أقلية في بلدها حتى تقوم برد فعل يمكن استخدامه لتبرير تهميش نفس هذه الأقلية بصورة أكبر. لم يتعلق الأمر لا بالحق في النقد ولا بالسخرية بوصفها رأس الحربة في حرية التعبير عن الرأي. هنا تم ويتم الضحك على ثقافة أخرى. وهذا له في أوروبا تقليد مختلف تمامًا، وهو التقليد الذي يقف أبعد ما يكون عن المذهب الإنساني؛ وهذا ينطبق على الاتجاه السياسي للجريدة الدنماركية وللسياسيين الذين يقفون وراءها. إن حربهم لا تتجه فقط ضد المسلمين ولكن ضد كل ما جعل أوروبا بعد كل هذه الجرائم والحروب تصبح مكانًا رائعًا، ضد التسامح والعقل وثقافة الحل الوسط والتوازن والعلمانية الحقيقية التي تعتمد على المساواة وأيضًا احترام الأديان. إن نشر رسوم كاريكاتيرية تسيء إلى أقلية مظلومة على أي حال وتعيش في ظل قوانين عنصرية هو أمر ينافي التنوير. إنها معاداة بغيضة للأجانب وستبقى.

سيخدم الصراع حول الرسوم المسيئة في المستقبل علماء الإعلام، بوصفه مثالًا على قدرة وسائل الإعلام الغربية وغير الغربية في أيام قلائل، وبتعاون محكم فيما بينها، على التسبب في حالة من الهستريا تنتاب جموع البشر، الذين تقدم تلك الوسائل تقاريرها عنهم. وكل من يدلي بدلوه في الحديث يتحول إلى جزء من السيناريو الذي يجب أن يتحدث فيه الجميع: ناقد الإسلام وكذلك من يمثل الإسلام ويحاول أن يهدئ من غضب الجماهير، والناقد الإعلامي وكذلك الصحفي الذي يشكو من النقد الإعلامي. هذا التتابع من استفزاز ثم تهديد ثم تهدئة ثم غضب من محاولات التهدئة يتكرر مع كل ثورة مشاعر تحدث كل بضعة أشهر بسبب موضوع الإسلام، كما حدث مؤخرًا بعد رفض دار نشر أمريكية نشر رواية عن النبي محمد، مما منح هذا الكتيب الضعيف من الناحية الأدبية الذي لا يعتبر بحال من الأحوال معاديًا للإسلام نجاحًا عالميًّا لم يكن يحلم به. لأن «الفضيحة توجد حيث تضع لها وسائل الإعلام نهاية» إذا استعرنا مقولة كارل كراوس. لقد أصبح النموذج مألوفًا حتى إنه لم يعد بحاجة إلى الاستفزاز أو إلى التهديد حتى تنطلق نفس الحجج والبراهين: لذلك لم يُسمح للفنان جريجور شنايدر بعرض مكعبه الأسود الذي يُذكِّر بالكعبة لا في مدينة البندقية ولا في برلين على الرغم من أن الاتحادات الإسلامية هناك أكدت أن هذا لا

يُعد إهانة لهم على الإطلاق، وأُلغيت أوبرا «إيدومينيو» لموتسارت التي كان مقررًا عرضها في برلين بسبب القلق من ردود الفعل الإسلامية الغاضبة، دون أن يكون هناك مَن غضِب.

من الذي يشارك في جدل مثل الذي دار حول الرسوم الكاريكاتيرية الدنماركية أو إلغاء عرض أوبرا في برلين؟ إن الذي لم يتصفح باب الثقافة في الجرائد قط لديه هموم أخرى. تُعد حرب الثقافات في الدول الإسلامية أو في الهند وأيضًا في ألمانيا همًّا برجوازيًّا. توجد بالتأكيد القاعدة العريضة من الشعب، التي تخرج في مظاهرات ضد المساجد أو تعبر عن غضبها على الإنترنت، ولكن الاتجاه يعطيه دائمًا الصحفيون والأساتذة والسياسيون، الذين يشاهدون كيف يتغلغل الصراع بين الغرب والإسلام ليصل حتى إلى أنفاق المترو تحت الأرض؛ بينما يعيشون هم عادة في أحياء سكنية قد لا يتمكن مهاجر من السكن فيها أبدًا. إن شعور الحياة هنا أيضًا ليس موجهًا ضد شيء بعينه بالدرجة الأولى. هناك تسامح مع المسلم. فقط المتطرفون اليمينيون هم الذين يعادون الأجانب، وبالطبع فإن المرء ينأى بنفسه عنهم. إلى جانب أنه ليس للمرء أي علاقة بالعنف ضد الأجانب، والأكثر من ذلك: المعتدون يسيئون لثقافتهم بأنفسهم. إن المرء ليس ضد الآخرين، وإنما فقط «مع» الحفاظ على ثقافته، لأن هذه الثقافة الخاصة مهددة دائمًا وفي كل مكان. عندما يسافر المرء كثيرًا، فإنه يأخذ انطباعًا بأن الجميع مهددون وحسب.

لا أحد يرى نفسه عدوانيًّا، ولا توجد ضغائن دون خوف يعتبر ذريعة لها. حتى أسامة بن لادن قد لا يرى نفسه عدوانيًّا. دائمًا وفي كل مكان يدور خطاب الهوية مع الإشارة إلى الحفاظ والدفاع. ليس لدى المرء قط أي شيء ضد الآخرين ولكن للأسف الآخرون هم الذين يحملون مشاعر الكره، حتى لو لم تكن أسباب ذلك مفهومة، وكانت في حقيقة الأمر ادعاءات مريضة فقط. يعد المرء نفسه دائمًا مسالمًا جدًّا. «لماذا يكرهوننا؟» عنوان نقرؤه على أغلفة المجلات في هامبورج والقاهرة ودلهي وواشنطن. لكنك لو لفت نظر عالم دين مسلم عادي أو رجل أعمال عربي أو صحفي إندونيسي إلى أنه يكره الغرب، فسوف يظنك قد أصبت بلوثة. ربما يعترف بوجود قلة من المتطرفين لا علاقة له بهم يكرهون الغرب، لكنه هو نفسه ربما يرفض في الغرب هذا الأمر أو ذاك؛ ربما يخاف من التفوق العسكري للولايات المتحدة الأمريكية، ولكن الكراهية سيرفض تمامًا وبكل تأكيد نسبها إليه.

هل سيكون الوضع مختلفًا في الغرب؟ لا يوجد مسيحي عاقل ولا مثقف وربما ولا حتى متطرف يميني سيدَّعي على نفسه كراهية الإسلام. الكراهية في داخل المعسكر الذي ينتمي إليه المرء تُعد أساسًا ظاهرة الأقلية المتطرفة، وفي معسكر الآخرين ظاهرة الحشود.

لو كانت الثقافات والمجتمعات مسالمة هكذا كما تظن بنفسها لما وجدت بالتأكيد حروب. ولكن بصرف النظر عن حملة الاستعمار هذه أو تلك في العصور القديمة — ربما يمكن هنا ذكر المغول — فإن المرء يبدأ الحروب أساسًا لكي يدافع عن نفسه. حتى الحملات الصليبية كانت تبعًا لأيديولوجيتها الخاصة حروبًا دفاعية أو بالأحرى حروبًا لاسترداد ما قد سُلِب، وكان انتشار الإسلام تبعًا لوجهة النظر الإسلامية عملًا دفاعيًّا حاسمًا تبرره دائمًا الأعمال العدائية التي يقوم بها الآخرون غير المسلمين. لا، بل ربما شعر المغول هم أيضًا بأنهم مهددون.

إن الدين الجديد للبرجوازية الصغيرة التي تمثل الطبقة المتوسطة في العالم، والتي تشبه معابدها «هايبر وان»، متنوع بما يكفي لتزويد عمود الإعلانات الذي يُضاء من الداخل بما يحتاجه من وحي مناسب، وأمام العمود يوجد رفان يمتلئان بما يشرح القلب من ثقافة البلد، مما يهدف إلى خلاص الأفراد الذين يخاطبهم بصيغة «أنت». والسياسة هي الشيطان الذي يعبث بالعلاقات الاجتماعية. في مصر لا يزال عمرو خالد النجم بين الدعاة، وهو ابن الواحد والأربعين عامًا، وخريج كلية التجارة، وعادةً ما يرتدي قميصًا أبيض وربطة عنق دون جاكت، وله شارب مهذب. وهو دائمًا مبتسم في الصور التي تغطي جميع كتبه وكأنها شعار. أضع في عربة التسوق أقل كتبه سعرًا، ثلاثة جنيهات وخمس وسبعون قرشًا، أي ما يقارب الخمسين سنتًا، وهو كتاب عن التفكير بوصفه عبادة، يشرح الكتاب لي، أي للقارئ، في خمس وسبعين صفحة قصة الخلق منذ بدايتها. تُعد قضية النشوء والتطور أبسط فيما يخص الدين الإسلامي لأن القرآن تجنب الخوض في التفاصيل عندما قال في السورة رقم ٩٦ (العلق) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ مما يفتح الباب حتى أمام نظرية الانفجار الأول.

معظم الكتب الأخرى لعمرو خالد تهدف إلى تنمية الشخصية سواء «شخصية المؤمن» أو «الصبر والذوق». وبينما تعرض طاولات الكتب الأخرى في مصر كل جندي أمريكي على أنه محارب صليبي، وكل مهاجر غير شرعي يغرق أمام سواحل جبل طارق على أنه شهيد إسلامي، نجد أن صراع الثقافات سلعة غير متوفرة في «هايبر وان»؛ لا شيء عن شر الغرب، ولا توجد قصص حوارية على غرار «هروبي من براثن مغتصب الأطفال» أو «ثماني مرات اغتصاب في برلين» أو «مضطهدة: قصة معاناة مسلمة أوروبية». بل على العكس من ذلك نجد إبرازًا لسماحة الإسلام: «حقيقة غزوات النبي». وأمام الرف الديني توجد الكتب العامة التي تقدم النصح والإرشاد: «الطريق إلى السعادة» أو «كيف تتغلب على منافسيك» أو «الاحتراف في المكتب»، والرف الذي وراءه تشغله مستلزمات الكمبيوتر، طابعة سامسونج ليزر بحوالي ٦٠ يورو، وعلى عمود الإعلانات بجوار المصاحف كتب

الطبخ والتدبير المنزلي مثل «ستائر هيثر لوك» وهي أيضًا مثل الكتب السابقة مترجمة من الإنجليزية. في حين لا تجد في رف الأدب إلا كتبًا باللغة الإنجليزية للمؤلفين كين فوليت وجون جريشام ودونا ليون. وإذا بحثت عن كاتب مثل نجيب محفوظ، فإن بحثك سيضيع سُدى. في مقابل ذلك تعود «ألف ليلة وليلة» في نسخة والت ديزني إلى العالم العربي.

بينما كانت القرى السياحية التي كان يرتادها السائحون الغربيون قديمًا متشابهة، أصبحت اليوم أيضًا أماكن حياة المواطنين متشابهة. في «هايبر وان» أشتري نظرة في المستقبل. بصرف النظر عن بعض المنتجات المحلية مثل التمر، فإن المواد الغذائية ليست فقط هي نفسها، بل إن الماركات بدرجة كبيرة هي نفسها. المقهى ومحل الأحذية الإيطالي «فيارجيو» ومتاجر الهواتف النقالة ومحال البيتزا والآيس كريم، ومطاعم الوجبات السريعة الخمسة واستديو الأثاث وفيه أرائك ماركة «لين روزيه» وقبعات البيسبول والقمصان الصفراء التي يرتديها العاملون، والخزائن المميكنة (العمالة رخيصة كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، لذا يوجد من يساعد في تعبئة المشتريات في الأكياس)، والبنوك تتجنب أيضًا أي علامات محلية، ولكن أثناء أزمة الرسوم الكاريكاتيرية وضعوا في الثلاجات مصاحف مكان الجبن «الفيتا». آهٍ لو تعلم أمريكا كم هي ناجحة وكم هي محبوبة، ربما قلَّ عدد الحروب التي تشعل فتيلها.

في مكان العروض الخاصة عند المدخل تباع أشجار عيد الميلاد البلاستيكية المزينة بالقطن الأبيض، فضلًا على زينة عيد الميلاد وسلاسل الزينة المضيئة. الغائب الوحيد عن المشهد هو «بابا نويل»، ربما لأنه بذقنه البيضاء شديد الشبه بالملالي في إيران.

ألمانيا تزداد انفتاحًا على العالم

لم تزدد في العالم الإسلامي وفي شمال أمريكا أو في الهند في السنوات الأخيرة القوى الأصولية وحدها قوةً، فقد أصبح معارضوها أيضًا يعبرون عن أنفسهم بحسم أكبر من ذي قبل. الصدع لا يتفاقم بين الثقافات بل بالأحرى يتسع في داخلها. لا يختلف الوضع عن ذلك في أوروبا: فكما تتشكل الصراعات الثقافية فإن هناك قوى مضادة تتشكل ويتجمع أنصار أوروبا التي لا تحدد ملامحها من خلال حدودها وإنما عن طريق انفتاح مجتمعها. إنه جدل يشبه في تكوين معسكراته ما يحدث في العالم الإسلامي أيضًا، ولكن لحسن الحظ لا يصل إلى نفس درجة حدة ما يحدث فيه. عناوين الجرائد المحافظة وهستريا بعض كتاب الأبواب الثقافية تصرف الأنظار عن أن سياسة معظم الدول الأوروبية تجاه المهاجرين تعمل على التصدي لصراع الثقافات، وأن هناك تغيرًا في وسائل الإعلام يحدث منذ فترة طويلة، وأن الاتحادات الاقتصادية تدعو بصورة واضحة إلى وجود سياسة منفتحة للهجرة ومجتمع متعدد منفتح على العالم. يوجه السياسيون والاتحادات الاقتصادية وهيئات التحرير بصورة مستمرة خطابهم ومطالبهم وتحليلاتهم إلى جمهور لم يعد متجانسًا عرقيًّا أو ثقافيًّا. وتقديم كلمة يوم الجمعة في بعض المحطات التلفزيونية ما هو إلا إشارة رمزية. وسيتضح أن الأمر الأهم يتمثل في أن نسبة أبناء المهاجرين قد ارتفعت بشدة في الأطباء الذين يؤدون فترة التمرين، وأن تركيبة هيئات التحرير تقترب تدريجيًّا من تركيبة المجتمع. على الأكثر عندما يصبح أحد رؤساء تحرير المؤسسات الصحفية «شبيجل شربينجر فاتس» يحمل اسم جولياناز أو محمد فإن الناشرين الرجعيين أيضًا سيكونون قد دخلوا في مجتمع الهجرة، بدلًا من أن يستمروا في محاربته. وعلى الرغم من كل ما يُكتب عن الإسلام أو ضده، وعلى الرغم من كل الأصوات العالية، فإن التعايش يسير في المجتمع على نحو أفضل بكثير والتسامح مع المسلمين أكبر بكثير مما يبدو في الواقع الإعلامي.

لا يمكن مقارنة انفتاح ألمانيا على العالم اليوم بما كانت عليه قبل عقدين أو ثلاثة عقود. إذ إنها اعتادت اليوم وجود المهاجرين. يجب على المرء فقط أن يتذكر أو يتحدث مع الأشخاص الأكبر سنًّا حتى يحصل على الدليل على المدى الذي وصلت إليه التعددية الثقافية بوصفها أمرًا بديهيًّا. أجد الأمر رائعًا أن أكون محاطًا بكل هذه اللغات والروائح وأشكال الحياة، حتى إن الداخل والخارج كما عشتهما في طفولتي لَينفتح كلٌّ منهما على الآخر، ويسعدني أن الإحساس بالحياة يزداد انفتاحًا على الكون على الأقل في المدن الكبيرة. لا أتمنى أبدًا أن أعيش في ألمانيا في فترة الخمسينات من القرن الماضي، حيث كان الناس سيحدقون فيَّ وكأني حيوان في حديقة الحيوانات، نظرًا لاختلاف لون بشرتي. كثيرًا ما يُستدل على قلة رغبة الأتراك في الاندماج بأنهم يفضلون الزواج فيما بينهم. يمكن للمرء أن يعتقد في هذا الدليل ما يشاء ولكني عندما أنظر إلى جيل والدي ومن تزوج منهم من ألمانيات، أجد أنهم تقريبًا كلهم قد تعرضوا لمشاكل هائلة من أجل أن تقبلهم العائلات الألمانية أزواجًا لبناتهم. كثير من الألمانيات اللاتي أحببن أصدقاء أو أقارب والدي طُردن من عائلاتهن، وبعضهن ما زال مطرودًا حتى اليوم. هذا يبدو الآن ولحسن الحظ غريبًا، إلا أن هذه كانت القاعدة أكثر منها الاستثناء عندما هاجر والداي إلى ألمانيا. لقد تغير هذا وخصوصًا في جيل بناتي، فقد أصبح بديهيًّا أن ينتمي المرء إلى ألمانيا ويكون اسمه أجنبيًّا مثل «ماريكا» أو «مرفه». أتخيل أحيانًا ألمانيا ومدينة كولونيا وهي خالية من الأجانب والأتراك؛ سيكون هذا أمرًا فظيعًا وبالدرجة الأولى ستصبح قاحلة.

أما عن نفسي فألاحظ أني لم أعد أُسأل إلا نادرًا متى سأعود إلى وطني. قبل أعوام كان هذا السؤال يُطرح دائمًا على من هم مثلي: متى ستعود إلى وطنك؟ لم أكن أجد في السؤال اضطهادًا أو إهانة، ولكني كنت أجده سؤالًا غريبًا. العودة إلى الوطن تعني في حالتي العودة إلى مدينة زيجن في وستفاليا السفلى، وأنا فعلًا لا أرغب الآن في العودة إلى هناك. أسأل نفسي دائمًا متى سيفهم الألمان أننا لن نعود إلى أي مكان. أعتقد أنهم بدءوا يفهمون ذلك بالتدريج، حتى في السياسة: فبقدر ما أنظر بنقد إلى قوانين الهجرة التي صدرت أخيرًا وإلى قوانين حماية اللاجئين، أوافق تقريبًا على جميع الإجراءات التي أقرتها الحكومة الاتحادية أو حكومات الولايات أيضًا لدعم تدريس اللغة الألمانية لأبناء المهاجرين ولدمجهم في المدارس أو إجراءات حماية النساء. تسير السياسة هنا منذ سنوات على الرغم من تأخرها بعض الشيء في مسار جيد، إلا أنه يجب أن تخطو عليه بصورة أكثر حسمًا وبثقة أكبر في النفس.

ظهر لي بوضوح الاختلاف الكبير بين الواقع الاجتماعي والواقع الإعلامي في أعقاب النقاشات التي دارت حول بناء مسجد في مدينة كولونيا. عندما كان المرء يقرأ بعض الصفحات الثقافية في الجرائد، كان يأخذ بالضرورة انطباعًا بوجود صراع ثقافات كبير مندلع وأن هناك مسيرات ضخمة للاعتراض على بناء مسجد كبير. أما النقاش هناك في كولونيا الذي أعرفه جيدًا باعتباري أحد سكان تلك المدينة الآن فقد كان يسير ببساطة ودون توتر حتى من المواطنين الذين كانوا ينظرون بعين الشك إلى بناء المسجد. وفي أثناء النقاشات اتضح وجود دعم شعبي وسياسي كبير لبناء المسجد على الرغم من وجود خلافات حول بعض التفاصيل؛ فقد أثيرت أسئلة حول حجم المبنى والخليط الاجتماعي في الحي والممولين ودور الحكومة التركية؛ وكلها أسئلة مشروعة تمامًا. على الرغم من أن دعاة الكراهية كان لهم أحيانًا الصوت الأعلى في التقارير الصحفية، فإنهم في حي «إيرينفيلد» نفسه، وفي المؤتمر الشعبي حول بناء المسجد، في القاعة الرئيسية بالمدرسة التي كانت تعُج بالحضور لم تكن أمامهم أي فرصة. طُرد اثنان أو ثلاثة ممثلين للحزب اليميني المتطرف «من أجل كولونيا» من القاعة بسبب تعليقاتهم الغوغائية والإهانات التي تلفظوا بها، أما بقيتهم فقد غطت أصوات الغالبية الساحقة من المواطنين على أصواتهم.

أُعرِب بكل تأكيد عن بعض التحفظات وعن الرفض، ولكنها كانت في أغلبها اعتراضات محددة عبر عنها أصحابها دون أي مواربة: اتجاه المرور، والمحال الكثيرة التي تبيع كل شيء بيورو واحد في شارع إيرينفيلد للتسوق، والضوضاء المتوقعة، والمعلومات القليلة المتوفرة لدى مقاول البناء، وارتفاع المئذنة وليست المئذنة في حد ذاتها. عندما عرض المهندس المعماري باول بوم تصميم المسجد على حائط العرض ارتفعت أصوات الحضور في القاعة تهليلًا؛ وكانوا ألمانًا. يجب أن يتخيل المرء هذا الموقف. الأشخاص التابعون لمجتمع الأغلبية لا يقبلون المبنى الرمزي للأقلية الجديدة فحسب، بل يقولون أيضًا: يا له من مسجد جميل، إذا كان سيبدو رائعًا هكذا فإننا نريده. تصفيق. يجب أن يكون هناك مكان ليصلي فيه الناس. تصفيق. كيف نطلب منهم أن يندمجوا ونطالبهم في الوقت نفسه أن يبقوا بعقيدتهم في أفنية المصانع حيث يُصلون. تصفيق. نحن إيرينفيلد. هتاف.

لقد اتضح مؤخرًا في الإعلانات ضد ما يسمى بـ «مؤتمر مناهضة الأسلمة» في خريف عام ٢٠٠٨، عندما احتشد ٥٠٠٠٠ شخص تضامنًا مع مواطنيهم المسلمين، أن هناك في كولونيا طبقة متوسطة منفتحة على العالم تتحول إلى ما يمكن تسميته مواطنين حسني النية، وخصوصًا في أوساط الطبقة البرجوازية التي «تحافظ على خط المكواة».

لقد لاحظت كثيرًا — وهذا أمر رائع أن تعيش بين هؤلاء الأشخاص — أن كثيرًا منهم متدينون أو قُل إن شئت أناسًا طيبي السريرة، ولكنهم أفضل ألف مرة من أولئك المحاربين الثقافيين الذين تحولوا عن اليسار السابق، الذين لا يريدون الآن الحديث عن أنهم دعموا الحرب على العراق بالأمس وينشدون الحرب على إيران اليوم. إني أفضل ألف مرة الأشخاص الذين يتفهمون دائمًا حتى في المواقف التي لا يكون التفهم فيها مناسبًا، حيث يظن المرء أن الأمر قد زاد عن حده.

كانت السيدة بكل تأكيد مُحقة عندما اشتكت من أن الأتراك، الذين يريدون مسجدًا وهي لا تمانع في ذلك، يتركون سياراتهم واقفة في الصف الثاني. هؤلاء الشباب في السيارة البي إم دبليو السوداء يثيرون غضبي أنا أيضًا في بعض الأحيان، فأصرخ فيهم بعد أن يمروا من أمام دراجتي على الرغم من أن لي أولوية المرور: «أيها المتسكعون!» أو «أيها المتمردون!» أو «أيها الأتراك الحمقى!» هذا ربما يبدو مضحكًا بعض الشيء، ولكن الأمر الذي لم أجده مضحكًا تمامًا كان الولد الأفغاني الذي ضرب ابنتي في المدرسة، ولم تجد المدرسات والمشرفات وسيلة للتفاهم معه؛ لأنه اعتاد في بيته ألا يحترم النساء. هذه بالطبع مشكلة. كيف يمكن لأحد أن يتوقع ألا يتسبب وجود ثلاثين في المائة من المهاجرين أو من أبناء المهاجرين الذين جاء معظمهم من مناطق متخلفة وريفية في مشاكل للسبعين في المائة الآخرين الذين يسكنون المكان من قبلهم؟ يتسبب المهاجرون في مشاكل بكل تأكيد. ولكن يجب الحديث عن هذه المشاكل، تمامًا كما حدث في اللقاء الشعبي. لقد كان ذلك — ولم أكن أنا نفسي أصدق ذلك — ديمقراطية في أخلص صورها. كل شخص لا يتصرف بغوغائية كان له الحق في التعبير عن رأيه، وتلقِّي إجابة حتى ولو امتد الوقت إلى منتصف الليل، فكما كان منظم اللقاء يقول «لدينا الوقت الكافي»، كان الكلام بالدور وتبعًا لمعايير صارمة. «هل تريد بناء المسجد؟ هل لديكم أماكن كافية لركن السيارات؟»

اصطحبت معي الأديب الإيراني أمير حسن جهلتان، الذي كان في زيارة لمدينة كولونيا في إطار برنامج «الديوان الغربي الشرقي» لتبادل الأدباء، وكان يحدِّق مندهشًا. كان يتمتم قائلًا ما هذا التسامح، يا له من بلد متقدم. وكنت أشاهد الأتراك الذين تكلموا بلغة ألمانية أفضل من المشاغبين ورأيت كيف كانت وجوههم مشرقة، وكيف كانوا فخورين، وكيف كانوا يفكرون في أنهم ينتمون إلى هذا البلد، وأيضًا الآخرين الذين كانوا يبدون مثل راكبي السيارة البي إم دبليو السوداء (أريد هنا أن أوضح أن سيارتي زرقاء كومبي). تكلمت فتاة أخرى ترتدي الحجاب، ذات ملامح شرقية، وتتكلم بلهجة منطقة الراين، وتمنت بحماس

أن تحافظ كولونيا على سمعتها العالمية كمركز للمثليين الجنسيين (الجميع في كولونيا يطمحون في السمعة العالمية في كل شيء) وأن تُصبح فضلًا على ذلك مركزًا للتنوع الديني. عندها طقطق بعض الحاضرين بأفواههم: مركز التنوع الجنسي والديني. هذا يمكن أن يكون — بل هو بالفعل — ما تعتبره كولونيا رسالتها. كم أتمنى أن تُسمع الرسالة في العالم ولا سيما في وطن ضيفي الإيراني، أو على الأقل في هيئات التحرير وفي الدواوين الحكومية في الجمهورية.

لقد حقق هذا البلد، جمهورية ألمانيا الاتحادية، إنجازات ضخمة فيما يتعلق بالاندماج. تغيرت التركيبة السكانية في غضون عقود قليلة بصورة جذرية، دون أن ينجم عن ذلك توترات اجتماعية كبيرة، مثل التي تعانيها الولايات المتحدة الأمريكية مع الهسبانيكس (سكان الولايات المتحدة من أصول أميركية جنوبية) أو الفرنسيون مع الأفارقة الشماليين، أو حتى المدن التركية مع النازحين من الريف. حركات الهجرة التي لها مثل هذا الحجم الضخم لا تسير أبدًا دون مشاكل، فهي تتسبب دائمًا في توترات، أو توقظ مشاعر الخوف التي لها ما يبررها أو تؤدي إلى صراعات حقيقية. إذا أخذنا ذلك في الاعتبار، فإن عملية إدماج ملايين الأشخاص الذين جاء معظمهم من عالم غريب وريفي وذي طابع إسلامي في ألمانيا قد حققت بالمقارنة نجاحًا جيدًا؛ هذا على الرغم من عدم وجود سياسة للاندماج بها لعقود طويلة، بل إن المرء يمكن أن يتحدث عن سياسةٍ مناهضة للاندماج حتى فترة الثمانينات، عندما كانت تقدم حوافز لتشجيع المهاجرين على العودة إلى أوطانهم. بينما كانت الأحزاب المحافظة حتى نهاية عهد كول ببساطة شديدة ترفض الهجرة، كان كثير من اليساريين يمجدونها بسذاجة، وكأن شعارهم: أيها الأجانب حررونا من الألمان. ولكن لا يمكن اعتبار أي أشخاص في العالم نافعين فقط لأنهم غير ألمان، وإن كانوا الأجانب في ألمانيا. وبذلك تعرضت مشاكل المهاجرين الريفيين للتجاهل، مثل المستوى التعليمي الضحل، أو المعرفة المنخفضة باللغة الألمانية حتى في الجيلين الثاني والثالث، ورؤية الحياة من منظور أبوي سلطوي، فضلًا على اضطهاد المرأة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الواقع الاجتماعي، كما أراه كل يوم، يسير بهدوء يثير العجب، وأنا أعيش في وسط الواقع متعدد الثقافات حيث يُطبَّق التسامح ويُختبَر يوميًّا — على خلاف المناطق السكنية البرجوازية — في حي تسكنه نسبة عالية من المهاجرين. بينما كنت أستمتع وأنا طالب بالتنوع الذي اتسم به الحي الذي كنت أقطنه، لا أجد الآن وأنا أب فرصة لتجاهل مشاكل المجتمع متعدد الجنسيات. لذلك فأنا أتفهم تمامًا عندما تصدر مدرسة قرارًا بأن تكون اللغة الألمانية هي المستخدمة فقط في فناء المدرسة. نحن

مثلًا لم نرسل ابنتنا إلى أقرب روضة أطفال منا، لأننا خشينا بعد أن زرنا الروضة مرة أو مرتين أن تتعلم ابنتنا هناك اللغة التركية وليس الألمانية. إذا لم تُناقش مثل تلك المشكلات والصراعات الأكبر التي تحدث بسبب تعايش عدة ثقافات مختلفة في مدننا مناقشة منفتحة، فإن العواقب ستكون وخيمة. فقط هكذا يمكن التعامل معها بجدية واهتمام كما يحدث في المدرسة الابتدائية الكاثوليكية التي أرسلنا إليها ابنتنا بعد ذلك. كانت نسبة أبناء المهاجرين أعلى من خمسين في المائة، ولكني كثيرًا ما كنت أشعر بالدهشة لنجاح المدرسين وأولياء الأمور والأطفال معًا، ليس فقط في التغلب على مشاكل التنوع، ولكن أيضًا في جعلها أمرًا إيجابيًّا، بل وأن يكون في مصلحة الألمان الذين استقروا هنا من قبلهم. كما تعلمت في المقام الأول أن الاندماج ينجح عندما لا تتقهقر الثقافة المحلية في خجل إلى الخلفية، وفي حالتنا هنا هي الثقافة الكاثوليكية وثقافة كولونيا — بل عندما تتم رعايتها وتمثيلها بصورة واعية. يُعد التخلي عن الاحتفال بعيد البشارة إشارة خاطئة، وهذا يحدث في بعض رياض الأطفال والمدارس خوفًا من رد فعل أولياء الأمور المسلمين. لا يدور الأمر حول إنكار الذات وإنما حول احترام الآخر. من لا يحترم نفسه لا يتوقع احترامًا من الآخرين.

يوجد بالتأكيد كثير من الأمثلة المضادة، أي مدارس لا ينجح فيها التعايش بنفس الدرجة كما في مدرسة ابنتي. عندما تُعلق بجوار المدخل قوائم بأسماء الفائزين في مسابقة القراءة تدل الأسماء على جنسيات التلاميذ المتنوعة، كما هو الحال في فناء المدرسة. ربما لا تكون هذه هي القاعدة، إلا أنها لم تعد استثناءً أيضًا، فتبعًا لبيانات المصلحة الاتحادية للإحصاء فقد ارتفعت نسبة المهاجرين عام ٢٠٠٦ في الثانوية العامة لتصل إلى ٢١٪ في مقابل ١٨٪ من أصحاب الأصول الألمانية. لكن هذا التحول الهائل الذي تعبر عنه الأرقام لا نجد له صدى مطلقًا في النقاش العام عن المهاجرين. ومن يحاول الإشارة إلى الأمور العادية تُوجَّه إليه بسرعة البرق تهمة محاولة التهوين من الوضع وتبسيط الأمور، وربما يقال له: لا أحد ينكر أن هناك نماذج ناجحة للاندماج، ولكن دعونا نتحدث عن المشكلات، تمامًا كما يدور الحديث دائمًا عن العاطلين عن العمل وليس عن الذين يجدون عملًا. هذا صحيح. وعلينا إذن ألا نعجب من فشل الاندماج، أو بصورة أعم فشل المجتمع متعدد الثقافات عندما نغفل تمامًا حياته اليومية العادية. قبل أن أحكي بسعادة غامرة كيف كانت ابنتي فخورة بأن صفها الدراسي قد غنى أنشودة فارسية في حفل عيد الميلاد (وكان ذلك بمنزلة اعتراف وتقدير لاختلافها) وبعد ذلك أنشدوا الأغاني البولندية والتركية والعربية والبرتغالية ثم غنى في النهاية جميع الأطفال والمدرسين وأولياء الأمور في قاعة الجمباز المكتظة بالحضور — غطاء رأس هنا أو غطاء رأس هناك، فقد كانت في آخر الأمر مدرسة

كاثوليكية، حيث ترتدي الراهبات أيضًا غطاء رأس — أنشودة عيد الميلاد الألمانية بكل حماس وإخلاص. نعم، قبل أن أحكي عن ذلك ربما من الأفضل أن أعود إلى المشاكل. حتى في المدرسة الكاثوليكية لا يمكن أن يكون كل يوم عيد الميلاد. أريد الآن أن أصف بتفصيل أكثر الواقعة التي أشرت إليها من قبل: «صراع الثقافات»، فلا أحد يفكر فيه إلا نادرًا. قبل الساعة الواحدة ظهرًا بقليل اتصلت بي السيدة أويسكيرشن هاتفيًّا، وكانت في فترة الإشراف على التلاميذ، وطلبت مني الحضور بسرعة إلى المدرسة لأن ابنتي تعرضت للضرب في فناء المدرسة. لم أطرح أسئلة وإنما توجهت على الفور إلى المدرسة. عندما وصلت وجدت ابنتي محاطة بصديقاتها من الصف الدراسي الثاني وببعض الفتيات اللاتي يكبرنها سنًّا. على الأقل كانت قد توقفت عن البكاء ولكن وجهها كانت تعلوه علامات الفزع. لقد ضربها الفتى مرتين بقبضته في بطنها وبكل قوة، والآن يقف مرتبكًا في الزاوية. كان يبدو فتًى تركيًّا، وربما كرديًّا؛ أجنبيًّا على أي حال كما نقول حتى نحن، ولو كان مولودًا في كولونيا أيضًا. أكدت السيدة أويسكيرشن كم أنها تأسف لما حدث، وقالت لي إنهم يبذلون في المدرسة قصارى جهدهم حتى يسير كل شيء في سلام، ومع أن لديهم أطفالًا من جنسيات كثيرة جدًّا، فإن الوضع يتسم دائمًا بالسلام والوئام. وأضافت أنها الآن في حيرة من أمرها، فهذا الغلام مشكلة حقيقية، فهو لا يسمع كلامها. يزيد عمر الطفل على عمر ابنتي قليلًا، ربما يكون في الثامنة أو في التاسعة من عمره. تعدى هذا الطفل عدة مرات بالضرب على أطفال آخرين؛ ولكن ليس بهذا العنف، حسب قول السيدة أويسكيرشن. واستكملت كلامها مؤكدة أنها لم تصادف مثل هذا الطفل من بين جميع أبنائها، وأنها تشعر بالمسئولية تجاه جميع الأطفال ومنهم ابنتي أيضًا. إلا أنها لم تستطع منع وقوع هذا العنف، وفي هذه اللحظة اغرورقت عيناها بالدموع، واستطردت مؤكدة أنها لا تريد مثل هذا العنف بين الأطفال، لكن هذا الفتى لا يسمع كلامها ولا كلام المشرفات الأخريات.

«أرجوك، تكلم معه!» قالت لي ذلك وهي تنظر إليَّ وتكاد تتوسل إليَّ أن أفعل.

قلت لها سأفعل وأنا أعتقد أني أعرف ما الذي فكر فيه كلانا في هذه اللحظة: الفتية المسلمون يعتبرون مشكلة في المدرسة، يميلون إلى العنف لذلك لا يسمعون كلام معلماتهم ومشرفاتهم، لأنهن نساء. أتمنى أن تكون السيدة أويسكيرشن مدركة لحقيقة أن الرجل الذي تطلب منه الوساطة لحل المشكلة الآن أجنبي أيضًا وابنته المسلمة ذات الطبيعة المشرقة والاهتمامات الفنية والمشاركة في «مجموعة عمل كولونيا»، التي تحلم بأن تكون ذات مرة الأميرة في المهرجان لا تتسبب بحال من الأحوال في أي مشكلة في المدرسة. أتمنى ألا

تعتقد السيدة أويسكيرشن أن جميع الأطفال المسلمين يتسمون بالعنف ويصعب دمجهم في المجتمع. وانتبهتُ سريعًا إلى أن ما أفكر فيه لا أصل له من الصحة. كيف يمكنني أن أعتقد أن السيدة أويسكيرشن التي تقضي يومها بين أطفال من مختلف الدول لا تملك القدرة على التمييز. كنت أنا أيضًا أعي حقيقة أن هناك أطفالًا صعاب المراس من الأطفال الشُّقر، وأن هناك أطفالًا شعورهم سوداء يحققون مراكز متقدمة في مسابقة القراءة. وعلى الرغم من ذلك يكون للعنف صلة بطابعهم الثقافي. هذا ما فكر فيه كلانا دون أن ننطق به. فكرت أولًا في أن أصطحب الولد إلى منزله وأتحدث مع والده، ولكني خشيت من أن يتعرض الفتى للضرب حالما أغادر منزلهم.

أخذت ابنتي والفتى إلى أحد فصول المدرسة الفارغة وجلسنا إلى طاولة، كلا الطفلين أمامي، وطلبت منهما أن يحكي كل منهما لي ما حدث من وجهة نظره. ولم تختلف روايتهما. لم يُنكر الفتى أي شيء. قال فقط إن ابنتي وقفت في طريقه عندما كان ينزل الدرج مسرعًا إلى فناء المدرسة، ولم تُفسح له الطريق عندما طلب منها ذلك. نعم، صحيح، ثم رجع بعد قليل وضربها مرة أخرى لأنه وجد تصرفها سخيفًا. فسألتُه هل يرى أن ما فعله سليم.

فقال لي: لا لم يكن سليمًا، يؤسفني ما حدث.

شرحت للفتى أن المرء قد يغضب أحيانًا من أطفال آخرين، وعندها يمكن أن يتذمر أو حتى يصرخ فيهم إذا لزم الأمر، لكنه لا يضربهم، هذا ممنوع ممنوع ممنوع منعًا باتًّا. كررت الكلمة ثلاث مرات. ولا نضرب فتاة أبدًا، وخصوصًا إذا كانت أصغر منا. هذا لا يكون غباءً فقط، بل جبنًا أيضًا. كنت واعيًا تمامًا أنني أخاطب فيه ميثاق شرف، وإن كنت أنا أرفضه في حقيقة الأمر، ولكن لم يخطر ببالي تلقائيًّا أي حُجج أخرى أُقنع بها الفتى.

«إذا سمعت مجددًا أنك ضربت أي شخص آخر، أيًّا كان، فسوف تصبح في ورطة حقيقية.» قلت له ذلك بصوت هادئ وأنا أنظر إلى عينيه وأنا عابس الوجه، كما كنت أراهم يفعلون في الأفلام الأمريكية.

كان يطأطئ الرأس في البداية ثم نظر إليَّ وهز رأسه بالموافقة، وقال:

«لقد كان تصرفًا سخيفًا مني. لن أفعل ذلك ثانيةً.»

«وماذا ستفعل الآن؟»

«سأعتذر لها.»

«إذن، فافعل ذلك.»

مد يده وصافحها وقال لها:

«آسف لما حدث.»

فقالت له ابنتي: «لا عليك.»

أعيش بالطبع حياة مميزة، وبالطبع توجد أحياء أخرى شديدة التنوع وكثيرة الصراعات، ولا يُعد العنف في مدارسها استثناءً. إن تعايش أبناء جماعات مختلفة معًا دون حدوث توترات أمر مرغوب فيه، إلا أنه — وهذا ما أثبتته كل الخبرات — أمر غير واقعي. فحيث توجد الاختلافات، تكون أيضًا الصراعات. الأمر الحاسم هو: هل يُعبَّر عنها بطريقة سلمية؛ أي فقط بالكلام، وهل لها أثر على عمل الدولة أو استقلال القضاء. لذلك فلم يضايقني حقًّا من بين جميع الأحداث والنقاشات والتطورات إلا ظاهرتان اثنتان: الأمر الأول هو خطر قيام إسلامويين بهجمات إرهابية، خطر ممن يفعلون ذلك والخطر الذي يأتي كرد فعل على هذه الأفعال. أما الأمر الثاني الذي أتابعه ببالغ القلق فهو تعامل الدولة مع الأشخاص الذين يُشتبَه في صلتهم بالإرهاب، والقوانين التي يزداد مدى تأثيرها، والأوامر أو حتى الطلبات التي تُبرَّر دائمًا بالوقاية من وقوع هجمات إرهابية. هنا يقع التعدي على المبادئ الأساسية لنفس دولة القانون التي يُراد الدفاع عنها. أريد أن أبدأ بالنقطة الأخيرة وأذكر واقعة تمثل كثيرًا من الأحداث والاتجاهات، وتُذكِّر بأشهر وأوضح انتهاك للقانون في السنوات الماضية؛ قضية «مورات كورناز».

نحن مورات كورناز

هذه اللحية، وهذا الشعر، وخصلة الشعر هذه التي تتدلى على جبينه ولسبب ما تبدو دهنية أو مبللة بالعرق، ربما بسبب تسريحته الصحراوية. ولكن الملفت أكثر هذه اللحية، هذه اللحية الغريبة، أطول وأشعث من لحية ... من لحية ... الآن ظهر الارتباط وإن كانت لحيته مختلفة تمامًا وبالمقارنة بها تبدو لحيته مهذبة: إنها أطول وأشعث من لحية ابن لادن. لا، إن مظهره لم يكن ليجلب له الكثير من التعاطف في وطنه الألماني. وها هو ذا هذا الشاب ذو اللحية والشعر الأشعث تخبرنا قصته بما يعنيه لنا نظامنا القيمي في حقيقة الأمر. نحن مورات كورناز.

لا تقدم دول القانون ضمانًا بأن كل شيء فيها يسير تبعًا للحق والقانون. ولكن عليها أن تضمن إجراء التحقيق في أي خروج على القانون وأن تتحقق العدالة للضحايا. أمام قانونها، وفقط أمام قانونها، يكون كل الناس سواسية، الرئيس الاتحادي والمتهم بالتطرف. ليس مورات كورناز في حاجة لأن يكتسب تعاطف أحد. يجب ألا يكون للتعاطف دور على الإطلاق. إن له حقوقًا، حقوق إنسان، لا تقبل الفصال، وهي لا تتعلق بشكله أو بدينه أو بخط سير رحلته. من غير المعقول أن نتصور أن يبقى ألماني العرق؛ شخص أشقر ومسيحي، في معتقل يتعرض فيه للتعذيب، بموافقة فعلية من السلطات الألمانية على الرغم من أنه بريء. أما في حالة هذا الشاب من مدينة بريمن الذي يحمل جواز سفر تركيًّا فقد بدا ذلك معقولًا.

اعتُقِل في شهر نوفمبر من عام ٢٠٠١ الشاب كورناز البالغ من العمر وقتها تسعة عشر عامًا، إذ اعتقلته قوات أمن باكستانية في أثناء عملية تفتيش روتينية وسلمته إلى قوات الأمن الأمريكية في أفغانستان نظير مبلغ من المال. صنَّفه الأمريكيون في البداية على أنه «مقاتل غير شرعي» ثم نقلوه في يناير من عام ٢٠٠٢ إلى معتقل جوانتانامو في كوبا. وعلى

الرغم من إسقاط التهم عنه بسرعة وإعلان محكمة أمريكية أن حبسه غير قانوني، فقد بقي في جوانتانامو حتى أغسطس ٢٠٠٦ لأن السلطات الألمانية رفضت دخوله البلاد. حسب ما قاله المفوض الأمريكي الخاص والمسئول عن جوانتانامو بيير ريتشارد بروسبر، فإن الحكومة الألمانية كانت منذ عام ٢٠٠٢ على علم بأن مورات كورناز بريء. على عكس ما قاله فرانك-فالتر شتاينماير الذي كان يشغل وقتها منصب وزير ديوان المستشار الألماني، فإن الحكومة الألمانية لم تساند إطلاق سراحه. عام ٢٠٠٤، أعلن توماس روفيكامب وزير داخلية ولاية بريمن على الملأ أن كورناز غير مسموح له بالدخول إلى ألمانيا، لأن تصريح إقامته أصبح غير سارٍ نظرًا لإقامته في الخارج. وقال إن كورناز قد تخطى المهلة المسموح بها لتقديم طلب لمد فترة تصريح الدخول إلى البلاد. في نوفمبر ٢٠٠٥ قررت محكمة القضاء الإداري في بريمن أن تصريح الإقامة لا يزال ساريًا؛ لأن كورناز لم تتح له فرصة تمديده. على الرغم من أن الدولة، وعلى رأسها رئيس ديوان المستشار الاتحادي في ذلك الوقت، تصرفت بطريقة تثير التساؤلات إلى أبعد حد سواء من الناحية الأخلاقية أو القانونية، فإن هذا لا يكفي وحده ليكون سببًا في أن نضع قدرة دولة القانون على العمل موضع التساؤل. إذ إن الأمر يتعلق بتبعات ذلك التصرف على الأشخاص الذين أسهموا — وهم يتصرفون باسم ألمانيا — في حرمان إنسان مدة خمس سنين من حقوقه الأساسية. في حالة مورات كورناز يجب أن نوضح أنه لم تكن هناك أي تبعات لهم على الرغم مما قاموا به.

هناك بالدرجة الأولى حجتان استخدمهما وقتها السياسيون والموظفون المسئولون في الدفاع عن أنفسهم: كورناز يمثل خطرًا أمنيًّا، وهو ليس ألمانيًّا. الحجة الأولى سليمة حتى عام ٢٠٠٢. كان للاشتباه في كورناز في البداية ما يبرره، حتى إن محاميه لم يشكك في ذلك. ولكن حتى باستخدام التعذيب لم يُعثَر على أي دليل على أن كورناز كانت له أي صلة بمسلحين إسلاماويين؛ أي أن مورات كورناز لم يعد منذ عام ٢٠٠٢ يمثل خطرًا أمنيًّا. كان احتجازه بداية في أفغانستان ثم في جوانتانامو ليس فقط غير قانوني ولكن أيضًا — بدءًا من عام ٢٠٠٢ — غير مبرر. ولو افترضنا أن كورناز كان ذلك المتطرف، وفقًا لما تصورته السلطات الألمانية في البداية، فإن جوهر دولة القانون يكمن في أنها تعامل أيضًا من يحاربها بالقانون، أليس كذلك؟ ولكن بدلًا من ذلك أبلغ بعض الموظفين الألمان في البداية عن كورناز ثم خضع للاستجواب عدة مرات، وحسب أقواله، التي اعتبرها معظم أعضاء لجنة التحقيق التي شكلها البرلمان الألماني صادقة، تعرض أيضًا للضرب والإهانة. هذا تصرف تكفي بشاعته للإطاحة بجميع المشاركين فيه من مناصبهم إلى الأبد.

إن فضائح الأعوام الماضية التي أجبرت بعض السياسيين على اعتزال العمل السياسي تُعد شقاوة تلاميذ فقط إذا قورنت بما حدث.

أما الحجة الثانية التي أوردها الاشتراكيون المسيحيون للدفاع عن وزير خارجيتهم فقد كانت جنسية كورناز التركية. ربما كان لديهم من الناحية القانونية الحق في أن ألمانيا غير ملزمة بالسماح لكورناز بالدخول مجددًا إلى أراضيها، على الرغم من أنه مولود في بريمن (ولكن هل كان تصرفًا سليمًا أن يطلب الموظفون الألمان من زملائهم الأمريكيين جواز سفره ليمزقوا منه الصفحة المطبوع فيها تصريح إقامته، كما ورد في صفحة أخرى في ملف القضية يتمنى شتاينماير بكل تأكيد لو كان مزقها هي الأخرى؟) ولكن حتى لو كان كورناز صينيًّا يسكن في كينيا، فإنه سيكون من الواجب على السلطات الألمانية — وخصوصًا لأنه كان أمامهم الإمكانية متاحة وعُرض عليهم أكثر من عرض لإطلاق سراحه — أن تسعى لإنهاء احتجازه غير القانوني. هذا لا علاقة له بجواز سفره، وإنما هو واجب من واجبات حقوق الإنسان. بدلًا من ذلك فعلوا أشياء وصلت إلى الالتفاف على قانون الأجانب من أجل منع عودته إلى ألمانيا، مع علمهم بأن هذا سيتسبب في بقاء كورناز قيد الاعتقال الأمريكي غير القانوني. ولم تَثبت أي مقولة تدل على أن المسئولين عن هذا الأمر شعروا بعدم ارتياح بسببه.

كم هو غريب التعلل بموضوع جواز السفر الألماني وكأن مورات كورناز كان سينتفع به لو كان يحمل واحدًا واشتُبِه في أنه متطرف إسلاماوي. خالد المصري، الذي اختطفه عملاء المخابرات الأمريكية عام ٢٠٠٣ إلى أفغانستان حيث أذاقوه أمر أنواع العذاب بناءً على تشابه في الأسماء — كان ألمانيًّا. الدعم الذي قدمته له ألمانيا جاء على ما يبدو في صورة لكمات في الوجه وجهها إليه موظف ألماني. ومحمد زمار الذي اختطفته المخابرات الأمريكية أيضًا واقتادته إلى سوريا في عام ٢٠٠١ كان ألمانيًّا. ولم نسمع أن السلطات الألمانية قامت بمساعٍ من أجل حمايته من التعذيب في سوريا، بل على العكس: وثائق السي آي إيه والإف بي آي تؤكد الشكوك في أن المعلومات التي كانت حاسمة في اختطاف العملاء الأمريكيين له جاءت من ألمانيا. على الرغم من أن زمار كانت له على ما يبدو صلات بجماعات إرهابية، فإن تورطه المفترض لا يبرر استجواب موظفين ألمان له في سوريا في ظروف لا تمت لدولة القانون بصلة. والمصري الآخر عبد الحليم خفاجي، الذي يبلغ الآن خمسة وسبعين عامًا، ويعيش في طمأنينة منذ سبع وعشرين سنة في بافاريا، وله عدة أطفال ألمان ويُعد — خلافًا لزمار — نموذجًا للاندماج الناجح — اختُطِف في سبتمبر ٢٠٠١ إلى سجن سري في توزلا

البوسنية، حيث تعرض لمعاملة شديدة السوء حسب أقوال عملاء المخابرات الألمانية. تسلم عميل مخابرات ألماني من زميله الأمريكي في توزلا وثائق كان على بعضها آثار دم خفاجي. ومن ناحية أخرى رفضت السلطات الألمانية جميع الالتماسات التي تقدم بها محاموه الواحد تلو الآخر.

هناك حجة ثالثة استعان بها الاشتراكيون الديمقراطيون في دفاعهم: تحديدًا الأشخاص الذين رفعوا الدعوى ضد شتاينماير، كانوا قبل ذلك يعتبرون كل الإجراءات ممكنة في سبيل مكافحة الإرهاب. هذا الكلام سليم بنسبة خمسين في المائة. بعد مرور عام على ١١ سبتمبر كانت الحكومة الاتحادية ستتعرض بالتأكيد إلى هجوم من المعارضة المسيحية الديمقراطية إذا سمحت «لعضو طالبان القادم من بريمن» بالعودة مرة أخرى إلى الأراضي الألمانية. ولكن على أي حال فإن أنجيلا ميركل، المسيحية الديمقراطية، قد استطاعت في وقت قليل جدًّا أن تحقق ما كان مستحيلًا طيلة خمس سنوات ولم يجد من يحمل مسئوليته على عاتقه، ألا وهو عودة مورات كورناز. فضلًا على ذلك وجَّه بعض ممثلي الحزب الديمقراطي المسيحي — مثل السياسي المتخصص في الشئون الداخلية فولفجانج بوسباخ — نقدًا لاذعًا لوزير الخارجية. معظم السياسيين في الحزب المسيحي الديمقراطي لم يدلوا بدلوهم إما لاعتبارات تخص الائتلاف الحاكم أو لأنهم رأوا أن مورات كورناز ليس بالشخص الذي يستحق أن يسانده ديمقراطي مسيحي. لذلك فإن تهمة النفاق السياسي لم تنطبق إلا على عدد قليل من السياسيين، عدا ذلك يمكن أن يعتبر نقد الحزب المسيحي الديمقراطي نفاقًا إن وجد أصلًا. ومن رأى السياسي صاحب المواقف الصلبة، فولفجانج بوسباخ، وهو يصارع من أجل إيجاد كلمات مناسبة للموضوع لا تهدد سلام الائتلاف الحكومي، كان سيشعر أن أمامه شخصًا لا يراوغ في الكلام. لقد بدا من كلامه أنه غاضب غضبًا صادقًا لأن الدولة التي طالما وقف في مقدمة الجبهة للدفاع عنها قد خانت أشد مبادئها خصوصية بهذه الطريقة. أين يكمن إذن تفوق الغرب، الذي يتغنى به السياسيون المثقفون منذ سنوات في طول البلاد وعرضها، إن لم يكن في تلك الإنجازات التي حققها مثل كرامة الإنسان وسيادة القانون والمساواة بين جميع البشر؟

إذا كان في اللعبة نفاق، فإنه كان بالأحرى من نصيب وسائل الإعلام التي شاركت في خلق تلك الحالة التي جعلت السلطات تتخوف من عودة مورات كورناز، وذلك من خلال ما كانت تقدمه وقتها من تحذيرات من الإسلام إجمالًا ومن تقارير مثيرة عن عضو طالبان في بريمن. ولكن هكذا هي وسائل الإعلام: إما أن تؤجج الضغائن وإما أن تعرضها. هذا جزء

من العمل يرونه عاديًّا، فالعمل بمبادئ عصر التنوير نادرًا ما يجعل صحفهم المعروضة في الأكشاك جذابة، والتحفظات تجاه المسلمين عادية أيضًا، وخصوصًا بالنظر إلى الخطر الواقعي المتمثل في الهجمات الإسلاماوية. مثل تلك التحفظات موجودة في أي مجتمع. الأمر الغريب يكون في رأي الأغلبية تهديدًا بينما تراه الأقلية إثراءً. لا يمكن أن نفرض على أحد أن يحب المسلمين. يمكن للمرء اعتبارهم بشعين، أو أن يكتب أنهم بشعون، أو أن يكتب ما فيه إهانة لنبيهم، فهذا أيضًا جزء من الحرية ينتمي إلى المميزات التي يستفيد منها المسلمون أنفسهم بوصفهم أقلية. ولكن — وهذا هو الفرق الحاسم بين رأي المجتمع وتصرفات الدولة — لا يصح أن تنزل الدولة إلى مستوى الكراهية، إذ يجب على الدولة أن تتمسك بمبدأ المساواة حتى إن كانت — بل خصوصًا عندما تكون — الروح السائدة في المجتمع مختلفة.

وجود قوائم أمنية للمسلمين في ألمانيا أو خضوعهم لإجراءات أمنية أكثر من غيرهم عند القدوم إلى ألمانيا، هذه أمور ليست بالجميلة، وتُعد خاطئة، ولكن هناك على الأقل غطاء قانونيًّا لها يمكن تفهمه، فخطر الهجمات الإرهابية يأتي من شباب مسلمين وليس من العجائز اليهوديات. ولمنع وقوع اعتداءات إرهابية تلجأ حتى الديمقراطيات إلى إجراءات تصل إلى أقصى حدود ما تسمح به دولة القانون، وفي حالة الشك توضح المحاكم تلك الحدود. أما حالات كورناز والمصري وزمار وخفاجي فكلها تقع خارج دائرة ما هو متفق مع روح القانون الأساسي (الدستور الألماني) أو نصه، لذلك فإنها تبقى حتى اليوم مقلقة أكثر من تلك المشاحنات حول المساجد، وأين يمكن أن تُبنى، فهذا أمر قد ينجح وقد لا ينجح، وهو شأن خاص بالمسلمين، ولكن الأمر يختلف هنا، فقد شاركت الدولة على أعلى مستوياتها في انتهاك حقوق أساسية من حقوق الإنسان. هذه مشكلة تواجه ألمانيا. إذا تحول ما حدث إلى مدرسة ومنهاج، فإنه سيزلزل نظام القيم الذي طالما تغنينا به أكثر مما يمكن أن يفعل به الإرهاب، وسيكون لذلك تبعات وخيمة على عملية اندماج المهاجرين في ألمانيا. فكيف يمكن تصور إقناع شاب ألماني من أصل عربي أو تركي في المستقبل بأنه ليس مواطنًا من الدرجة الثانية؟ ولأعرج في هذا السياق مرة أخرى على مفهوم النفاق: كان النقد الذي وُجِّه للقاضية في فرانكفورت في محله تمامًا، عندما استشهدت بالقرآن في قاعة المحكمة لكي ترفض طلاقًا مبكرًا. لكن الذين علت أصوات غضبهم بسبب تلك الفضيحة على أصوات الجميع، أصبحت أصواتهم خافتة، لا بل صمتوا تمامًا فيما يتعلق باعتقال وتعذيب مورات كورناز.

ربما يختلف التقييم القانوني للحالات التي يكون فيها الضحية ألماني الجنسية. أمر الاعتقال الدولي الذي صدر في حق الذين قاموا باختطاف خالد المصري كان دليلًا قويًّا على المناعة القوية التي لا يزال القضاء الألماني يتمتع بها ضد الفيروس الذي أطلقته «الحرب على الإرهاب» كما تُسمَّى، والمتمثل في: الدفاع عن النظام الليبرالي عن طريق التخلي عنه. ولكن حتى الحكومة، بل خصوصًا الحكومة التي تكتب على راياتها في سياستها الخارجية مكافحة انتهاك حقوق الإنسان وفي سياستها الداخلية إدماج المهاجرين، تخضع أيضًا لتقييم سياسي وأخلاقي. كان هذا التقييم سيكون أقل حدة لو وُجدَت أي علامات يمكن استقراؤها من على شفاه المشاركين تشير إلى إحساسهم بالأسف لما حدث. كيف لم يسافر السيدان شتاينماير وشيلي إلى بريمن ليزورا مورات كورناز وأمه؟ كان بوسعهما أن يصفا لهما الأشهر المأساوية التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر، كان بوسعهما أن يقولا إنهما عندما ينظران إلى الأمر من منظور اليوم يريان أنهما قد أخطآ التصرف، ولكنهما تحت وطأة الظروف في ذلك الوقت تصرفا ربما بما اقتضته الظروف. خصوصًا فرانك-فالتر شتاينماير، فهو شخص لا يترك انطباعًا بالقسوة لدى المراقبين والأصدقاء، فقد كان تحديدًا وهو يشغل منصب وزير الخارجية يسعى بطريقة جيدة من أجل تحقيق التبادل السلمي بين الدول والثقافات، وبالأخص فيما يتعلق بالحوار مع العالم الإسلامي. لو كان شرح الموقف وجهًا لوجه، لما رفضت رابية ومورات كورناز إجراء الحديث أو أخذ الصورة التي تعبر عن التصالح من أجل أن تعرضها الصحف. إلا أن توقعاتهم لم تكن كبيرة بهذا الحجم. كان كلامهم ينم عن الحيرة والألم أكثر من الغضب والاتهام.

كلمة تعبر عن التعاطف معهم ما كانت لتعوضهم عما حدث، إلا أنها كانت ستجعل الأمر كله يبدو في صورة مختلفة. كان على المرء بدءًا من هذه اللحظة أن يفكر في المقومات السياسية والإعلامية التي جعلت حدوث حالة مثل مورات كورناز ممكنًا أكثر من التفكير في القرارات الفردية التي اتضح أنها كانت خاطئة. ولكن لم يحدث شيء. وصل وزير الداخلية السابق أوتو شيلي إلى قمة الوقاحة عندما قال إن على كورناز أن يعتذر هو. وأكد جميع المشاركين الباقين أيضًا أنهم تصرفوا بطريقة سليمة، وأنهم في نفس الظروف سيتصرفون بنفس الطريقة مجددًا. والأسوأ من ذلك أنهم قدموا حُجة رابعة لتخدم خط دفاعهم، وكانت أفظعها جميعًا: المحاولة المستمرة والمنظمة لإظهار مورات كورناز في صورة المجرم؛ واحد مثل هذا بالتأكيد صحيفته سوداء. وهذا الادعاء يعود بنا ثانية إلى اللحية: لاقى تطبيق الاستراتيجية التي اتبعها المسئولون واتبعتها جريدة «بيلد تسايتونج»، وهي إلباس

الضحية عباءة الجاني، نجاحًا لدى بعض قطاعات الشعب. هذا النجاح يمكن أن تكون له علاقة وثيقة بمظهر كورناز.

يجب ألا يتحلى المرء بمخيلة واسعة كي يتصور كم حاول محاميه الشجاع وأمه الجزعة وربما أيضًا بعض محرري البرامج الحوارية القلقين إقناعه بحذر أو بشيء من الضغط أن يذهب إلى الحلاق قبل أن يطل على الملأ، إلا أن مورات كورناز امتنع. ربما لم يكن السبب في امتناعه العناد أو صلابة الرأس، ربما كان يتصرف بعقلانية أكثر مما كان يبدو. عندما انتهى كل شيء، وعندما لم يعد مورات كورناز منشغلًا بأي لجان تحقيق، وبعدما انتهى من جميع البرامج الحوارية حلق لحيته حتى يتمكن من السير في الطريق مجددًا دون إزعاج. ربما كان ذلك الشعر الهائج تمويهًا فقط، والآن عاد مورات كورناز ليبدو مثل؛ ليس مثل الألماني العادي، لكنه بوجنتيه الحليقتين الناعمتين وقصة شعره الحديثة صار يبدو واحدًا منا، إلا أننا لم نعد الآن نلاحظ وجوده في الطريق.

الإرهابيون بيننا

ذات مساء منذ أعوام، وأنا ما زلت طالبًا أكتبُ أولى تقاريري الصحفية، كنت أجلس في بار أحد الفنادق مع رودولف شيملي، المراسل الصحفي الشهير لجريدة «زود دويتشه تسايتونج»، الذي كان يكتب عن الشرق الأوسط منذ عقود. تكلمنا عن التوقعات المستقبلية والخطط الشخصية، وقال لي شيملي إن الشكوك تساوره أحيانًا فيما إذا كان سيظل بمقدوره بعد عدة سنوات، بوصفه زائرًا غربيًّا، أن يعبر الطريق وهو في أي بلد عربي دون قلق كما يفعل الآن، وأضاف قائلًا إن أجمل ما يجده في مهنته هو التجول عبر المدن العربية ومدن الشرق الأوسط دون هدف، والاستمتاع بحسن الضيافة وبالأدب هناك يومًا بعد يوم، وأعرب عن قلقه من أن لحظات السعادة تلك ربما لا يتسنَّى للمراسل الغربي أن يستمتع بها في المستقبل. ومنعني وقتها الاحترام الكبير الذي أُكنه لشيملي الذي يكبرني في السن أن أقول رأيي بصراحة، فقد كنت أرى أن فكرة ألا يشعر مواطن غربي في يوم من الأيام بالأمان وهو في العالم العربي في منطقة سكنية تقليدية غير واقعية بالمرة. إلا أنني الآن أخشى أن شيملي ربما كان مُحقًّا؛ أخشى أنني لن أتمكن في المستقبل من إقناع أصدقائي الأوروبيين بالخروج وحدهم لقضاء أُمسية في المدينة القديمة في القاهرة، أو ليلة في ميدان «الفناء» في مراكش، ذلك الميدان الكبير الساحر الذي طالما تغنَّى به الناس — حتى يتخلصوا مما علق بأذهانهم من أحكام مُسبقة وتعميمات عن العرب والمسلمين، وربما ينبغي ألا أحاول إقناعهم بذلك.

إننا معشر المراسلين الذين قضينا أعوامًا عديدة في السفر بين الشرق الأوسط وأوروبا، ولنا في المنطقتين أصدقاء، ونعرف عظمة كلتا الحضارتين ونواتهما الإنسانية، ونحاول عن طريق تقاريرنا الصحفية أن نُشجع الفهم المتبادل — نقف اليوم على أطلال الحُجَج التي

كنا نسردها. فماذا تملك التحليلات عن الإسلام، مهما كانت دقيقة، وماذا تملك التقارير الصحفية عن العالم العربي، مهما كانت مُتفهِّمة، في مواجهة صور الاعتداء على مترو الأنفاق في لندن؟ مَن سيكون بوسعه أن يُعارض، عندما ينطلق التحذير من الخطر الإسلامي؟ وعلى الجانب الآخر: لا الحضارة الأوروبية ذات الألف عام ولا التنوير ذو الثلاثمائة عام ولا الستون عامًا التي هي عُمر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يمكن أن تقف في وجه الانطباع الذي تُعطيه السياسة الغربية في الشرق الأوسط يومًا بعد يوم بالحروب الأمريكية، ودعم ديكتاتوريات عربية، والاحتلال الإسرائيلي، والاستغلال الاقتصادي السافر، وأيضًا — وهو الأمر الذي يندر الحديث عنه هنا بينما يكثر ذكره في العالم الإسلامي — الحملات التبشيرية العنيفة التي تقوم بها بعض الكنائس الإنجيلية. ولم يعُد أحد في الشرق الأوسط يُعارض فكرة التحذير من الخطر الغربي، ولا حتى المثقفين الليبراليين ذوي التوجه الأوروبي البحت.

أعرف ما يتوقعه الرأي العام الأوروبي منا، بوصفنا ندَّعي أننا نعرف الشرق معرفة جيدة. بالإضافة إلى أنني لا أغضب من أي شخص يرى أن عليَّ التزامًا خاصًّا بتوضيح موقفي من الإرهاب والظلم اللذين يُمارسان باسم ديني. أيتوقع البعض منا التنصل من ذلك؟ نعم، فالتنصل أمر يسهل فعله، كما يمكن مجانًا تنزيل نصوص بذلك المعنى من على المواقع الإلكترونية لجميع الاتحادات الإسلامية. لقد أصبح هذا طقسًا من الطقوس التي أشاهدها ولا أشارك فيها، ففي اللحظة التي أتنصل فيها أكون قد أعطيت الآخر الحق في أن يضعني موضع الاتهام. إن من مهام وواجبات المنظمات الإسلامية أن تُعلن عن موقفها، أمَّا أنا كفرد، فعندما أصبح في أوروبا متهمًا بدعم الوحشية بسبب ديني أو أصلي، فسيكون من الأفضل لي عندئذ أن أبحث عن قارة جديدة أعيش فيها تكون بعيدة قدر الإمكان عن الأحداث العالمية. الأصعب بكثير من التنصُّل هو أن نوضح لأنفسنا وللآخرين أسباب العنف ذي الدافع الديني، وما يمكن القيام به لمواجهة ذلك.

أريد أن أذكر مثالًا على تلك الصعوبة. بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ألَّفتُ كتابًا حاولت أن أشرح فيه لماذا يختطف شباب لِطاف طائرة ويلقون بأنفسهم وببقية ركابها إلى الموت. واليوم أسمح لنفسي أن أدَّعي ببساطة وجرأة وحرية أن هذا الكتاب كان جيدًا جدًّا. أنا أدَّعي أنه بوسعنا إلى حد ما أن نفهم ما دار في أذهان الجُناة إذا ألقينا الضوء على خلفياتهم الفكرية وسِير حياتهم؛ يمكن أن نستشعر حالة الإثارة التي وصلوا إليها عندما استطاعوا أن يُظهروا قوة عالمية عُظمى أمام عدسات الكاميرات وهي عاجزة عن

الدفاع عن نفسها، وهم يدمرون أبرز رموزها باستخدام بعض الأسلحة البيضاء الصغيرة وبأسلوب يُشبه ما نراه في أفلام الخيال العلمي. ومنذ ظهور ذلك الكتاب يُطلب مني دائمًا تقديم شرح لكل الهجمات الانتحارية الممكنة، وخصوصًا بعد موجة الهجمات التي شهدها العراق. وقد أصبح جوابي منذ فترة: ليس لديَّ أدنى فكرة، أنا أيضًا لم أعد أفهم ذلك. لا أعرف لماذا يفجر شخص ما نفسه كل يوم عند تقاطع شارعين أو في سوق في بغداد أو في النجف، أو مؤخرًا في أفغانستان أيضًا — دون أن يراه أحد سوى الضحايا. كل نماذج الشرح التي تنطلق من وجود عنف سياسي أو تضحية بالذات، والتي يمكن أن تُستخدم لشرح ما يجري في النزاع حول فلسطين أو الغضب المدمر المرتبط بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، لا تنطبق على ما يجري في العراق. تقع هناك هجمات كثيرة جدًّا تبدو «شديدة العمى»، ولا يُحدِث كل منها منفردًا إلا تأثيرًا ضعيفًا على الصعيد العام. على خلاف ما يحدث في فلسطين وما حدث في الحادي عشر من سبتمبر؛ فأنا لا أعرف من أين يأتي هؤلاء المجرمون، وما هي سِيَر حياتهم، وبأي طريقة وبأي تبريرات جرى تجنيدهم، ومَن الذي قام بذلك. تقع في العراق مذابح جماعية بمعدل شبه يومي، ولكنها تبقى في رأينا مُستعصية على الفهم.

ومما يزيد صعوبة فهم ما يحدث في العراق الآن هو أن الوضع الأمني جعل المراقبين لا يكادون يستطيعون دخول البلاد والتحدث إلى الأطراف الثائرة هناك. ولكن لننظر إلى إيران، كل من تابع التطورات في إيران عن كثب يمكنه أن يفهم التركيبات السياسية الداخلية والخارجية التي أدت إلى الوضع الراهن الذي يدعو إلى اليأس على كافة الأصعدة. الأسباب التي أدت إلى وجود رئيس لإيران اليوم يبدد جميع طموحات الانفتاح التي سادت في الأعوام الماضية ويدفع بها في الاتجاه المعاكس ليست مجهولة على الرغم من نُدرة ما نقرأ عنها هنا. ولكن هل ستقل خطورة الموقف إذا أصبح مفهومًا؟ إن الرئيس الإيراني لا يتصرف بصورة لاعقلانية بأي حال من الأحوال، كما يصوره الكثيرون، إنه لا يستهدف حكم العالم ولا يخطط لمحو إسرائيل من الوجود، ولا يمكن وضعه أبدًا في القالب الذي نسارع إلى تسميته «هتلر جديدًا». يا إلهي، من ذا الذي لن يوصف بأنه هتلر إذا ما صدقنا كلام أشهر المثقفين الناطقين بلغتنا؟ صدَّام كان هتلر، وشارون كان هتلر، وجورج دبليو بوش هو بأي حال من الأحوال هتلر الأكبر. والآن إذن محمود أحمدي نجاد: برلين ١٩٣٩ تساوي طهران ٢٠٠٨، هذه مُقابلة مُختصرة وواضحة. ولكن أي شخص أمضى ولو يومًا واحدًا في إيران سيجد تلك المُقابلة مُضللة وخاطئة تمامًا. إن الوضع هناك يمكن أن يتكشَّف للرائي عندما

يبدأ في النظر إليه بتعمق وتدقيق، وعندما يُحلل تسييس فكرة المسيح المنتظر [المهدي] عند الشيعة وتحويلها إلى فكرة متطرفة، وعندما يبحث في الأسباب العقلانية البحتة والمتعلقة بالسلطة السياسية التي تقف وراء تصريحات الرئيس المقززة حول المحرقة وإسرائيل، وعندما يحلل سلك المخابرات والسلك الأمني اللذين خرج من بين صفوفهما أحمدي نجاد، وعندما يأخذ في الاعتبار الثورة العظيمة في داخل المجتمع الإيراني التي ردت عليها الدوائر الأكثر تطرفًا في داخل النظام بما يُشبه الانقلاب. إلا أن — وهذا تحديدًا ما أرمي إليه هنا — النظر بتعمق وتدقيق يعني عدم الاستسهال أو الاستهانة بما يجري تمامًا. إن الوضع الراهن في إيران يمثل تهديدًا حقيقيًّا، للإيرانيين أنفسهم في المقام الأول، من النساء والطلاب ورجال الدين الناقدين للوضع وجميع أصحاب الفكر الآخر والاعتقادات الدينية الأخرى، وبالأخص البهائيين، ويمثل هذا الوضع أيضًا تهديدًا لدول الجوار التي تمارس إيران تأثيرًا عليها. يُعد النظر بتعمق وتدقيق مقومًا يجب توفره حتى يتسنى التعامل المناسب مع مشكلة ما. النظر إلى الأمور بتعمق وتدقيق والملاحظة الصبورة وعقد الموازنات الحذرة هو عملنا. يتملكني في بعض الأيام شعور بأن عملنا هذا قد أصبح على شفا الإفلاس.

كثيرًا ما أقرأ مقالًا أو أستمع إلى متحدث في التلفاز وأقول له في نفسي: أيها الزميل اذهب شهرًا لزيارة دولة عربية، أو اقرأ كتابًا يكون على الأقل مقبولًا من الناحية العلمية ويتمتع بالمصداقية، قبل أن تلقي على أسماعنا هنا فتوى عن الإسلام. لكني أعود وأقول في نفسي: آهٍ، لو كان يعرف مدى المصيبة! وكم هو كارثي وضع الدراسات الدينية! على سبيل المثال جامعة الأزهر، أكبر مؤسسة دينية تمثل الإسلام السني. كلا، إنها ليست غرفة العمليات المركزية في الحرب ضد الغرب. بل العكس: الشيخ الأكبر، شيخ الأزهر، يقول كل يوم وفي كل خطبة جمعة «لا للإرهاب»، ويفعل كل ما تطلبه منه حكومته وما تطلبه منه وسائل الإعلام الغربية. إنه يرى نفسه الحصن الذي يقف في مواجهة الأصولية. ولكن — وهذا مثال جيد لوضع الإسلام — المستوى الثقافي للتفكير في الدين في داخل المرجعية الدينية المركزية للمسلمين السُّنَّة يمكن أن يكون دون مستوى معظم القساوسة الإنجيليين في كنائس المحليات. إن الهزال الذي أصاب الإسلام الأصيل الذي كانت تثير ديناميكيته قديمًا العجب والإعجاب؛ هذا التراجع الذي أصاب الثقافة الدينية التي كانت مزدهرة — هو الذي مهد الطريق للأصولية. لم تنشأ الأصولية من الدين الأصيل، وإنما هي نتيجة للأزمة التي يمر بها. عندما توقف الدين الأصيل عن إمداد الناس بالإجابات نشأ الإسلام السياسي في الطبقات المتوسطة في المدن.

يمكن رصد حالة التراجع في معظم المجتمعات العربية في مجالات كثيرة وليس في حقل الدين وحده. لا تتفق نتائج تقرير «التنمية البشرية» العربي الذي تصدره الأمم المتحدة أو ملاحظات دراسات الهجرة التي تجريها الجامعات — من وجهة النظر الأوروبية — مع الصور التقليدية للخطر الإسلامي، إذ لم تعد تلك النتائج مثيرة مثل محتويات الكتب التي تُنشر عن الإسلام وتحتل أرفف أكثر الكتب مبيعًا أو مثل فشل المجتمع متعدد الثقافات. لكن هل يقلل ذلك من التأثير المنبه لتلك النتائج؟ لا، بل على العكس من ذلك. في معظم المدارس الإعدادية التي أصبح يدرس فيها نسب ضخمة من أبناء المهاجرين لا يُعد العنف كما كان في مدرسة روتلي في برلين هو المشكلة الحقيقية، وإنما انعدام الأفق هو المشكلة الملحة. إلى جانب أنه لا يمكن في المقابل مكافحة الإرهاب في الجيل الثاني أو الثالث عن طريق إجراءات الاندماج التي يُدعى إليها كرد فعل فوري في كل مرة يقع فيها اعتداء إرهابي، وذلك بسبب أن من نرى صورهم على الصفحات الرئيسية بعد وقوع التفجيرات الانتحارية يكونون في العادة شبابًا مسلمين مندمجين في المجتمع بدرجة جيدة، وعلى مستوى ثقافي جيد، ومشاركين في المجتمع، وتبعًا لسِيَر حياتهم متأثرين بالغرب تمامًا، وهم ليسوا من الشباب الذين تربوا في أحياء فقيرة مغلقة عليهم في ألمانيا، ولم يُمضوا أوقاتًا بعد الظهيرة في كتاتيب في الأفنية الخلفية للبيوت. كانوا يبدون وكأنهم نماذج ناجحة للاندماج؛ أذكياء وناجحين وعلى درجة عالية من المهارة الاجتماعية والثقافية. كانوا حاصلين على شهادات جيدة، وكانوا يفكرون في قضايا البيئة وتنمية المدن أو ترميم المدن التاريخية القديمة، وفي بعض الأحيان كانوا يدخنون الماريجوانا للاسترخاء، أما في عطلة نهاية الأسبوع فكانوا يخرجون للحج، ليس إلى المسجد، ولكن إلى استاد بي سي سانت باولي عند بوابة ميلر. يبدو أنهم جميعًا في مرحلة معينة من حياتهم قد اتجهوا إلى وسط ديني معين دون أن يتخلوا عن حياتهم اليومية من أجله، وكان هذا الوسط الديني يعمل فعليًّا على عزل نفسه عن التأثيرات الغربية. لم يخرج هؤلاء الشباب من هذا الوسط ولكنهم انجذبوا إليه وتورطوا في جماعة متطرفة تشبه في تركيبتها الطوائف الدينية. وهذا لا يختلف عما حدث للبريطانيين والأستراليين والأمريكان الذين ظهروا فجأة في صفوف المعتقلين من مقاتلي القاعدة أثناء حرب أفغانستان. هذا الفكر الذي قابلوه من خلال خبرة ذات أهمية جذرية، أو من خلال بعض معارفهم، يُعد فكرًا رجعيًّا بل عتيقًا. ولكن نشأة هذا الفكر، الذي لا يمت بصلة إلى الإسلام كما يفهمه آباؤهم، وإمكانية الاستناد إلى تقاليد متصورة، هذه هي الأمور التي تزداد معاصرة يومًا بعد يوم. إن توجه هذا الفكر ضد الحداثة التي تسيطر عليها أمريكا

وضد نظامها السياسي يجعل من التركيبة النفسية للأعمال التي يوجهها هذا الفكر تركيبة حديثة ومدنية وبرجوازية.

لن نفهم إرهاب ١١ سبتمبر واغتيال تيو فان جوخ أو الهجمات التي وقعت في لندن ما دمنا ندير نقاشًا لا يمت إلى هذه الأحداث بصلة. يمكن أن تكون التحذيرات من وجود مجتمعات موازية في محلها أو في غير محلها، ولكن علاقتها بهجمات لندن أو باغتيال تيو فان جوخ أو باعتداءات ١١ سبتمبر علاقة سطحية فقط. الجُناة لم يأتوا من مجتمع موازٍ، بل كانوا ينتمون لمجتمعنا نحن. لا يمكن تجنب هذا الإرهاب بتقديم دورات دراسية في اللغة الألمانية ودروس دينية باللغة الألمانية في المساجد. السؤال الذي يجب أن يُطرح هو: لماذا تكونت مشاعر الكره ضد الغرب، وبذلك ضد المجتمع الذي ينتمون هم أنفسهم إليه، تحديدًا لدى شباب متعلمين تعليمًا جيدًا ومشاركين اجتماعيًّا ويصفهم المحيطون بهم بأنهم أشخاص ودودون. السؤال هو: لماذا توقفوا عن الشعور بأنهم ينتمون إلى هذا المجتمع. السؤال نفسه يمكن أن يُطرح فيما يتعلق بالشباب العرب أو الأفارقة السود في «البونليو» الفرنسية، أو ما يسمى بالمناطق المحظورة، ما الذي حدث ليجعلهم بدءًا من مرحلة معينة في حياتهم يديرون ظهورهم بصورة متطرفة للغرب، على الرغم من أنهم عاشوا معظم حياتهم في الغرب أو ولدوا فيه؟ أنا أتكلم هنا عن عدد كبير من الأشخاص في المجتمعات الأوروبية، ولا أتكلم عن أشخاص يقومون بأعمال عنف وحسب. هذه قلة مصيرها إلى الزوال، ولكن الانطباع الشخصي الذي تسبب في توجههم ضد الغرب منتشر إلى حد ما حسب ما أرى وخصوصًا بين المهاجرين من الجيل الثاني والثالث والرابع. إنه الإحساس بأنهم لن ينتموا أبدًا إلى هذا البلد، وهم ليسوا المقصودين أبدًا عندما يقول قائد الدولة أو المعلق التلفزيوني «نحن». وهذا الشعور هو بالتأكيد ما تشعر به تركيا: حتى ولو استوفت يومًا ما جميع الشروط المطلوبة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، فستبقى آخر الأمر خارجه.

وبالطبع يتسبب توجه الشباب المسلم إلى تقاليد متطرفة في زيادة التحفظات ضدهم، وازدياد التحفظات من جانبهم يتسبب في زيادة ابتعادهم عن المجتمع. يشبه الأمر الدوران في حلقة مفرغة. ازدياد مشاعر الكراهية ضد المسلمين كلما ازداد عدد من يتحصنون منهم في داخل إطار حياة متطرفة أمر يمكن تفهمه. ولكن مشاعر الكره هذه لا تجعل الباقين ينأون بأنفسهم عن أفراد مجموعتهم، لأن ثمن الانتماء إلى المجموعة الأخرى هو أن يتخلى المرء عن ثقافته. في قصص الغلاف التي تنشرها مجلة «ديرشبيجل» عن المسلمين في ألمانيا

— كي نضرب مثالًا من الإعلام — تعرض المجلة كل مرة قصص «التركيات الصالحات». إنهن الفتيات اللاتي تركن بيوت أهليهن ويعشن الآن في حماية الألمان الشجعان، حتى يتمكنَّ من الذهاب إلى المراقص دون التعرض لمضايقات. منذ ذلك الحين لم يعد لديهن مشكلة في الحصول على شقة سكنية. الرسالة واضحة وساذجة أيضًا: سينجح الأمر، فقط إذا أردتم! لكن التأثير الذي يتركه مثل هذا الخطاب الاستعلائي لدى الشباب المسلمين الذين أعرفهم مختلف تمامًا: أنا لست ساذجًا! ربما كان الأمر بديهيًّا في رأيهم، أن يعتبروا الغرب وطنهم، وربما لم يفكروا في هذا الموضوع قط. لكنهم الآن مجبرون على التفكير فيه، إلى أي «نحن» ينتمون. إنهم مجبرون على اتخاذ قرار: إذا كنت تنتمي إلينا، فلا يمكن أن تنتمي إليهم. ويبدو أن قليلًا جدًّا من المهاجرين من أبناء الجيلين الثاني والثالث خطوا هذه الخطوة. إنهم ينظرون بعين ناقدة إلى ما يُفعَل باسم الإسلام، لكنهم لا يستطيعون ببساطة تغيير الجانب الذي ينتمون إليه. ونظرًا لأنهم مجبرون على اتخاذ القرار، فإن أعدادًا متزايدة من المسلمين تتخذ قرارها؛ وفي رأيي يتخذون القرار الخاطئ، الخطأ يكمن في أنهم يتخذون قرارهم لمصلحة جانب واحد من الجانبين.

أرى أن هذا التوجه ينشأ هنا تحديدًا، أو بعبارة أكثر حرصًا: يمكن أن يكون واحدًا من الدوافع التي تجعل شخصًا ينسلخ تمامًا من ثقافته، وبحماس المتحولين عن دينهم أو ثقافتهم يبدأ في مهاجمتها، كما نرى كثيرًا في البرامج الحوارية أو النقاشات عن الإسلام، أو أن يكون واحدًا من الدوافع التي تجعل الشخص على العكس من ذلك يحدد هويته عن طريق اختلافه الديني. والبديل الأخير يحدث ليس فقط لمن يقومون بأعمال إرهابية ولكن لكثير من الشباب في أوروبا، وهذا لا يدفعهم بالضرورة إلى ارتكاب أعمال عنف. إنهم يتوحدون أكثر مع توجههم الإسلامي. الأمر الذي كان يُعد مكونًا بديهيًّا من مكونات الحياة لدى جيل الآباء أصبح في رأي كثير من الشباب المسلم العنصر المحدد للحياة. وبذلك يُطابقون بصورة أو بأخرى الصورة التي لدى مجتمع الأغلبية عن المسلمين: أنهم أشخاص تتحدد هويتهم فقط من خلال الدين. هذا ما يجعل الإسلام يصلح لأن يكون المقابل لما يعنيه السياسيون ومعلقو التلفاز بقولهم «نحن».

إن مثل هذا التحليل لا يمكن أبدًا اعتباره شاملًا، فالتحليلات المشابهة تحاول فقط أن تتحسس الطريق للوصول إلى إمكانيات شرح، لا بل جزيئات من إمكانيات الشرح، التي يجب أن نضيفها إلى جزيئات أخرى، ولا تقدم هذه التحليلات حقائق مؤكدة أو تعرض السبب الوحيد للعنف، ولا تقدم أيضًا حلولًا بحال من الأحوال. إذا أردنا اختصار الفقرات الأربعة سالفة الذكر في صورة مقولة محددة تصلح للعرض في برنامج إخباري

أو لقاء حواري، فإن المرء سيجعل من نفسه أضحوكة: يتحول المسلمون إلى إرهابيين لأنهم يشعرون بالعزلة. الأفضل أن يظل المرء صامتًا. هذا هو أيضًا السبب الذي جعلني لا أشارك منذ سنوات في النقاشات التلفزيونية عن الإسلام، وأتجنب أي حلقات نقاشية مشابهة. فأنا — كما اكتشفت — الشخص غير المناسب تمامًا لمثل تلك النقاشات التي تهدف إلى تقسيم الناس إلى معسكرات واستخلاص ادعاءات بسيطة وآراء واضحة من الضيوف. أنا أحمل التناقضات في داخلي، وعندما أقول شيئًا فإن الاعتراض عليه يتبادر إلى ذهني عادة بصورة تلقائية. عند إلقاء محاضرة أو إجراء حديث لا يكون المرء فيه مضطرًا إلى وضع الأطروحة تلو الأطروحة (أي تكرار نفس الفرضية في كل مقولة) وإنما يستطيع التعبير عن الاختلافات والشكوك والتساؤلات، فإن هذا يجعل إلقاء الضوء على نفس العنصر من جوانب متعددة ممكنًا إلى حد ما، إلا أن مثل هذه الموازنات الفكرية لا تصلح للبرامج الحوارية، إذ يوضع أمام المرء فيها ميكروفون ويبدأ الضيف في عرض تعميمات وأمثلة مبالغ فيها بطريقة تبتلع في ثقة كل الفوارق الدقيقة بين الأشياء. ولأني ظننت بسذاجة أن عليَّ الرد على الشائعات والإهانات التي كانت تتعرض لها ثقافة والدي، فقد وجدت نفسي بسرعة في موقف المدافع، وهو الموقف الذي أشكك في جدواه. أنا لا أريد أن أدافع عن الإسلام، فهذا ليس دوري، إن واجبي بوصفي كاتبًا يتركز على النقد، أو بمعنى أدق نقد الذات، وهذا يعني في حالتي الثقافة الأوروبية والثقافة الإسلامية كذلك. ربما ينجح آخرون في حلبة النقاش عندما يتم إطلاق اثنين أو أربعة من المتنافسين، من أصحاب الآراء المتنافرة، في أن يحتفظوا بنقدهم الذاتي في هذه اللحظة لأنفسهم ويركزوا على ما يميزهم عن الآخرين. أما أنا فكان أقصى ما أتمناه دائمًا بعد مرور ثلاث أو خمس دقائق أن أختفي في الهواء.

أصحاب النوايا الحسنة تجاه الإسلام يذكرون أمثلة للأشخاص الذين حققوا اندماجًا ناجحًا ونتائج الإحصائيات التي تقوم على دراسات ميدانية، لكنَّ الإرهابيين لن يرجعوا عما هم عليه فقط عندما يعلمون أنهم يمثلون قلة ضئيلة. يشير المرء إلى من يسمون المعتدلين الذين يشكلون غالبية المسلمين، أو يطالب بإصلاح الإسلام، التنوير الإسلامي، «نموذج مارتن لوثر الإسلامي»، تفضلوا وتحدثوا مع من شئتم من المعتدلين، ولكنهم ليسوا هم الذين يلقون القنابل، فعن ماذا تريدون الحديث معهم؟ تفضلوا واخترعوا «لوثر الإسلامي» إن شئتم، ولكن لا تعولوا كثيرًا على أن يُصغي إليه السيد ابن لادن. يوجد كثير من الأسباب لإعادة التفكير في الإسلام، وهذا ما يعكف عليه بالفعل كثير من علماء الإسلام. ولكن من الوهم تخيل أن صناعة صيغة جديدة من الإسلام تتوافق أخيرًا مع حقوق الإنسان

ستكون قادرة على سحب البساط من تحت أقدام الإرهاب. أرضية الإرهاب تتمثل في الأحوال الاجتماعية والسياسية. بالتأكيد يمكن هنا أو هناك اتخاذ إجراءات أو تدارك أخطاء: مزيد من الكاميرات في الأماكن العامة ومزيد من الصلاحيات والأفراد لأجهزة المخابرات، ومزيد من الحوار مع جماعات المسلمين. ويمكن أن يساعد هذا — كما أتمنى — في تجنب وقوع اعتداءات إرهابية كما حدث مؤخرًا في لندن أو في زاورلاند. ولكن الأمر المؤكد أيضًا أن بعض الاعتداءات ستنجح في المستقبل، ولا أعرف ولا يعرف أحد السبيل لمنع حدوث ذلك. وأنا أستشعر — مثلما يستشعر الجميع — عواقب ذلك على التعايش مع المسلمين في أوروبا.

معظم الذين انشغلوا بالإسلاماوية في التسعينات أو عملوا مراسلين صحفيين في الشرق الأوسط اعتقدوا كما اعتقد المستشرق الفرنسي جيل كيبل أن الإسلاماوية قد تخطت بالفعل ذروتها، وكان هذا أيضًا انطباعي عندما زرتُ إيران وآسيا الوسطى والعالم العربي. لم نغفل وجود الجماعات الإسلاماوية أو نقلل من حجمها، ولكننا اعتبرنا الإرهاب نتيجة لتراجع تلك الأيديولوجية. الجزء الأكبر من الإسلام السياسي انتهج نهج الإصلاحيين الإيرانيين أو حزب العدالة التركي. كان على طريقه ليصبح ما يشبه الديمقراطية المسيحية ولكن بصبغة إسلامية؛ أي محافظًا وذا توجه قيمي ولكن نابذًا للعنف. الأمر الذي لم نستشرف حدوثه هو أن تنجح القوى الأكثر تطرفًا في إعادة تنشيط وإنعاش أيديولوجية الحرب العقائدية عن طريق عولمتها. ولم نتوقع أيضًا حربًا على الإرهاب تتسبب بغبائها وعنف وسائلها في نقل الدم اللازم لإحياء الأصولية وكره أمريكا في كل أرجاء العالم. سنوات عدة كنت أجوب طول البلاد وعرضها معلنًا أن جموع المسلمين لا تحمل كراهية للغرب. عندما ينتقد العرب أو الإيرانيون الغرب، فإنهم يعنون فقط ازدواج معاييره؛ أي أن الغرب يخون معاييره عندما يتعامل مع دول غير غربية. وهذا لا يُعد قدحًا في المعايير الغربية، بل العكس من ذلك، إنه مطالبة الغرب بأن يتصرف تبعًا لمعاييره الغربية الخاصة، بدلًا من أن يدعم حكامًا ديكتاتوريين مثل صدام حسين أو متطرفين مثل طالبان. لكني اليوم لم أعد واثقًا إن كان كره الغرب للمسلمين لا يعدو كونه أوهامًا.

في مثل هذا العالم الذي أصبحت فيه الفوارق الاجتماعية شاسعة، وتوزيع القوة غير متكافئ، ولكن أيضًا تداول المعلومات أصبح عريضًا بهذه الدرجة؛ فربما على المرء أن يعوِّد نفسه على فقدان الحريات الشخصية. ربما يكون ما سيأتي عاديًّا إذا قورن بالسلام الذي نتمتع به في رخاء في الغرب. ربما يكون علينا أن نعوِّد أنفسنا على الحياة في عالم لا نستطيع فيه أن نعيش التسامح والحريات إلا في داخل «المجمعات السكنية ذات الأسوار العالية». في المدن الأمريكية والآسيوية الكبرى يتحصن الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم

متمدنين بالفعل حاليًّا وراء الأسوار والسلك الشائك ولا يفكرون في أن تطأ أقدامهم أحياء معينة. كانت توجد في ألمانيا أيضًا مناطق يشار إليها بـ «مناطق غير قابلة للارتياد»، قبل أن تتعرض هذه التسمية للنقد في وسائل الإعلام. كل مهاجر من أفريقيا أو من الشرق الأوسط من ساكني برلين يعرف أن هناك أماكن في براندنبورج من الأفضل له ألا يمشي فيها وحده، ولا يقترب منها في المساء بأي حال من الأحوال. حسنًا، يمكن التعايش مع ذلك. لن يذهب المرء إلى هناك. يوجد كابوس فظيع يؤرقني كثيرًا في الفترة الأخيرة، وهو أنه لم يبقَ في أوروبا مكان يمكن للمسلمين أن يعيشوا فيه!

بصرف النظر عن الجدل الذي دار في هولندا بعد اغتيال تيو فان جوخ، فإن حكومات أوروبا كانت تتصرف برصانة مع الاعتداءات الإسلاماوية التي تقع في بلادهم. فحسب ما رأيت لم يكن يوجد كيلٌ للاتهامات الجماعية، بل العكس: قام حاكما إسبانيا وبريطانيا العظمى، أزنار وبلير، في أعقاب الاعتداءات بمحاولات واضحة لفتح الحوار مع ممثلي الجاليات المسلمة هناك. وبذلك لم يسديا للإرهابيين الجميل بأن يزيدا الصدع بين مجتمع الأغلبية والأقلية المسلمة فيه عمقًا، إذ إن هذا على ما يبدو واحد من أهداف تلك العمليات الإرهابية: أن تزداد كراهية المجتمع للمسلمين فتؤدي تلك الكراهية إلى مزيد من تطرفهم. وكان رد فعل الحكومة الألمانية أيضًا متعقلًا بعد وقوع محاولتَي الاعتداء على قطارين من القطارات الداخلية هناك. ما كنت لأتصور قبل أربعة أعوام أن أمتدح وزير داخلية مسيحيًّا ديمقراطيًّا على سياسة الاندماج التي ينتهجها. وأنا فخور أكثر من كوني سعيدًا بالسياسة الألمانية التي استطاعت حتى الآن أن تقاوم إلى حد ما — حتى في الجانب اليميني منها — استغلال ما يحدث سياسيًّا رغم سهولة ذلك. لذلك فأنا لا أتفق تمامًا مع الشكوى العامة من وجود تفرقة عنصرية ومعاداة للمسلمين من جانب الحكومات الأوروبية. لكني في الوقت نفسه أتصور: وقوع هجومين أو ثلاثة في ألمانيا يتبعه عدد كبير من القتلى؛ عندها لن تصنع قطاعات عريضة من الشعب وحدها ولا حتى الصحف والمحطات الإعلامية الشهيرة صورة عدائية ضد المسلمين، ولكن أيضًا ستخلق السياسة مناخًا معاديًا للمسلمين. هذا أمر لن يمكن تجنب حدوثه ولن يكون مختلفًا في أي دولة أخرى. إذا وقعت سلسلة هجمات من الأرمن في إيران، فإن مسئولية العنف لن تُلقى على المتطرفين الأرمن وحدهم بل على كل الأقلية الأرمنية. وإن كان مكسيكيون هم الذين أسقطوا برجي التجارة العالمية وليس مسلمين، لكانت الآن القبعات المكسيكية العريضة هي التي تمثل خطرًا على الحياة وليست العمائم.

يُعد تحميل الجميع تبعات تصرفات مجموعة من الأفراد أمرًا غير عقلاني، ولكنه رد فعل بديهي على العنف الذي يُرتكب باسم الجميع. إذا أصبح لدى الناس في أوروبا خوف حقيقي ويومي وليس فقط خوفًا نظريًّا مجردًا من الأشخاص الذين يرتكبون أعمال عنف باسم الإسلام، فإننا معشر المسلمين، جميع المسلمين، سنمثل جزءًا من هذا المجموع الذي يقوم بتلك الأعمال. عندها سيقع المسلمون في أوروبا تحت ضغط مستمر كي يثبتوا عدم وجود صلة لهم بالجُناة ويدافعوا عن أنفسهم، وسيدورون في حلقة مفرغة: كل اعتداء يقع سيبدد كل تأكيداتهم أن الإسلام بالفعل دين سلام، وأنهم يحبون العيش في أوروبا، وسيحمل نداءات جديدة لهم بأن يبتعدوا عن دوائر الإرهاب. ربما ستكون هناك أصوات أخرى تدافع عن المسلمين وتنادي بعدم تعميم الاتهام عليهم، ولكن حتى خطاب أصحاب النوايا الحسنة سيكون متأثرًا بإحساسهم أن هناك «نحن» أوروبية تتعرض للهجوم من «أنتم» لا تنتمي لهذه الـ «نحن». نظرًا لأني مسلم يعيش في ألمانيا ويستمتع بالحرية والتسامح، فأنا أخشى من حدوث تطور يؤدي في آخر الأمر إلى فقداننا بوصفنا أقلية هذا الكرم وذلك التسامح.

منذ فترة وجيزة كانت إحدى بنات عمومتي تزورنا هي وأسرتها في كولونيا. سألتْ قريبتي التي تعمل مهندسة معمارية في كاليفورنيا: كيف يرى الناس في ألمانيا وأوروبا الإسلام؟ فسألتها وأنا أهز كتفي: كيف عساهم يرونه؟ اقرئي أخبار اليوم وستعرفين كيف ينبغي أن يروا الإسلام. تذكرت ابنة العم الاعتداءات على القطارات الداخلية التي تم إحباطها، وخطبة المحرقة التي ألقاها الرئيس الإيراني، والتي سببت حالة من الذهول، ولم تطرح قريبتي أي أسئلة بعدها. دخل صديقي شديد التدين في الحوار وقال لنا إن زوجته بدأت في استبعاد جميع المقتنيات ذات الدلالة الإسلامية من غرفة المعيشة، أي ربما المصحف القديم أسفل المنضدة الزجاجية أو أي رسوم بالخط العربي. على الرغم من أنها في يوم ما كتبت شيئًا ذكيًّا جدًّا عن الصلوات الإسلامية، وعن المعنى الروحي للحروف المتحركة في اللغة العربية، وعن تتابع حركات الصلاة الذي يمكن مقارنته باليوجا أو التاي تشي أو العلاج النفسي الحركي، فإن زوجته اليوم لم تعد تحتمل، فحيثما نظرت وجدت أن الإسلام أصبح يعني القهر والحجاب والقتل. قلت لصديقي إن علينا ألا نتخلى عن ميراث الآباء والأجداد وعن كل هذه الثروات والأدب والتصوف والمؤاخاة التي تعلمناها باسم نفس الإسلام، لذلك فإن علينا ألا نترك ماضينا وراء ظهورنا فقط لأن الأخبار الراهنة لا تعجبنا.

كنت مصدومًا. إذا تولى صديقي وزوجته عن الدين، فمن سيبقى؟ قلت لهم إن الإسلام من وجهة النظر الغربية يُعد مرادفًا للقهر والحجاب والقتل، وهذا بديهي لأن هذا ما تعرضه

الأخبار على الناس. ولكن نحن الذين تربينا مع الإسلام وتعرفنا على الثقافات يجب علينا ألا نستسلم لوجهة النظر الأحادية المُخلة هذه. وسألته كيف يرى العراقيون والفلسطينيون والأفغان الغرب، ألا يعتبرونه مرادفًا للاستغلال والنفاق والحرب، فهل ستجعلنا تلك الرؤية نتخلى عن الغرب؟ عن بيتهوفين والتنوير والأدب وكافكا وحقوق الإنسان؟ نتخلى عن ذلك كله ونقول إنه كذب في كذب، فقط لأن السياسة الخارجية لحكومة بوش كانت سياسة إجرامية، ولأن «تكتل هاليبورتون» لا يفكر إلا في النفط؟ وافقني صديقي الرأي في أننا يجب ألا نترك الثقافة لأولئك الذين يمرغونها في الوحل، ولا أن نتوحد مع الآخرين الذين يحتقروننا. لقد كان في حيرة من أمره. أما زوجته فستبحث لغرفة المعيشة عن رمز بوذي ولن تعبأ بما يقترفه البوذيون من جرائم في سريلانكا أو في غيرها.

القرآن والعنف

مشهد يومي من الحوار الألماني مع الإسلام: اثنان من خبراء الإسلام يتناقشان مع شخص مسلم عما يسمى بـ «الميثاق الإسلامي» الذي يعلن فيه المجلس المركزي للمسلمين في ألمانيا التزامه بمبادئ الدستور الألماني، مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والنظام القانوني العلماني. يحاول الخبيران الجالسان على المنصة إقناع المسلم بأن ميثاقه هذا لا يتفق مع الإسلام. يقول أحدهما إن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والدولة، لذلك يجب على المسلمين التخلي عن أجزاء جوهرية من دينهم إذا كانوا يريدون فعلًا الالتزام بالدستور، ويكمل الآخر بقوله إن من جوهر الإسلام أن يسعى كل مسلم إلى نشر الإسلام بالقوة. فيعارض المسلم بشدة.

هل يدعو القرآن إلى العنف؟ كِلا الخبيرين يدلل على زعمه أن القرآن يدعو إلى العنف عن طريق اقتباسات من كتاب المسلمين المقدس، كما يفعل المتحاورون الألمان دائمًا، فلا يكاد يمر لقاء علني إلا ويقارع المتحاورون الألمان أو اثنان أو ثلاثة من الحضور المتحدثين المسلمين بآيات عنيفة من القرآن. وخصوصًا على الإنترنت تُتداول العشرات من الأقوال المخيفة عن الإسلام، وكثير منها تكون ببساطة مختلقة أو مترجمة ترجمة موجهة، إلا أن الاقتباسات السليمة تكفي للإقناع بوجود خطر إسلامي، مثلًا الإشارة إلى بداية الآية ٨٤ من السورة رقم ٤ (النساء) ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ** عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾، وتوجد آية أخرى يندر ألا يُستشهد بالجزء الأول منها في «الحوار مع المسلمين»، ألا وهي الآية ١٩١ من السورة رقم ٢ (البقرة) ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ

أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، أما الآية التي يُستشهد بها أكثر وربما تكون أشهر آيات القرآن في أوروبا فهي الآية رقم ١٢ من السورة رقم ٨ (الأنفال) التي يُستشهد بالجزء الأخير منها ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾. يفضل المسلمون في هذه الحالة الرد على هذه الاستشهادات بآيات أخرى من القرآن. وحتى ينجحوا في حوار الأديان يشيرون إلى رحمة الله التي تؤكدها فواتح الآيات أو اشتقاق اسم الإسلام من كلمة «سلام». من بين الآيات التي تخدم المسلمين في إثبات أنهم مسالمون توجد بكل تأكيد الآية ٢٥٦ من السورة رقم ٢ (البقرة) ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وكذلك الآية ٣٢ من السورة رقم ٥ (المائدة) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ **أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

يمكن للمرء الاسترسال في تبادل الاستشهاد بآيات القرآن بهذه الطريقة التي تشبه لعبة تنس الطاولة كما يشاء، لكن هذا لا يوضح أي شيء عن القرآن نفسه. آيات القرآن التي نستأصلها من سياقها النصِّي والتاريخي ونعزلها عن تاريخ تلقيها لا تقول شيئًا لا عن مدى دعوة القرآن إلى السلم ولا إلى العنف. استخدام القرآن وكأنه محجر نقتطع منه في كل وقت ما يناسبنا يتعارض مع تركيبته اللغوية والبنائية، ويتعارض مع أهم تقاليد التفسير في الإسلام. بقدر ما أصبح الناس يتعاملون اليوم في العالم الإسلامي مع القرآن بطريقة غير متعقلة، حيث تتيح الأقراص المدمجة والإنترنت إمكانية البحث في نص القرآن تبعًا لأي كلمة بحث، بقدر ما كانت علوم الإسلام دائمًا واعية بأن القرآن لا يمكن فهمه إلا بالنظر إلى مُجمل أقواله وبمراعاة أسباب نزوله. عرف المرء دائمًا أن القرآن هو مجموع الوحي الذي تلقاه النبي محمد على مدار ثلاثة وعشرين عامًا في مواقف تاريخية خاصة، كما عرف أن آياته تحتاج إلى تفسير وأن معانيها تحتمل أوجهًا كثيرة. لذلك اضطلعت العلوم الإسلامية دائمًا بتفسير القرآن على خلفية تلك المواقف التي نشأ علم لدراستها، وهو ما يسمى بـ «علم أسباب النزول». هذه ليست نظرة تاريخية نقدية، ولكنها تعني أن العلوم الإسلامية كانت منذ بدايتها تفهم رسالة القرآن في سياق نشأتها. بذلك استطاعت

تلك العلوم التعامل مع بعض التناقضات التي تبدو عصية على الفهم إذا وضع المرء فُرادى الآيات في مواجهة بعضها بعضًا.

في بداية الوحي على وجه الخصوص كان القرآن يمنع بوضوح استخدام العنف من أجل نشر الدين. لذلك يمكن لمن يريد إثبات سماحة الإسلام أن يجد في السور التي نزلت في الفترة المبكرة من الإسلام بُغيَته. ثم نزلت في المدينة آية رفعت حكم منع اللجوء إلى العنف بوضوح وهي الآية ٣٩ من السورة رقم ٢٢ (الحج) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، ومعنى الإذن هنا أنه كان ممنوعًا عليهم استخدام العنف قبل ذلك. وكما يمكن أن نفهم من السورة بعد ذلك فإن المسلمين كانوا في حيرة من أمرهم؛ إذ كيف يقاتلون أبناء قبيلتهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الآية ٧٧ من السورة رقم ٤ (النساء). ولكن عندما احتدم الصراع بين أتباع النبي محمد وصفوة أهل مكة، عندها جاء الأمر بأن يدافع المسلمون عن أنفسهم، هذا هو السياق التاريخي للآيات التي كثيرًا ما يُستشهَد بها مثل الآية ١٢ من السورة رقم ٨ (الأنفال) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾. كان جمهور العلماء على مدار التاريخ الإسلامي يفهمون هذه الآية في سياق ظروفها التاريخية وليس على أنها أمر عام وشامل بقتال غير المؤمنين. وكان واجب العلوم الدينية دائمًا هو محاولة فهم موقف الخالق، ذلك الموقف العام غير المقيد بزمان والذي أدى تحت ظروف تاريخية مختلفة إلى أقوال مختلفة. حقيقة أن الرسالة العليا للقرآن هي السلام، وهذا ما تثبته دائمًا العلوم الدينية، ليست كلمات خطابية فقط تستخدم في حوار الأديان، لأن جدلية الصدق والتوازن التي يعكسها الموقف التاريخي للمسلمين الأوائل نجدها حاضرة طوال فترة تاريخ الوحي، كي تشير دائمًا إلى أن احتكار القوة هو أمر لله وحده؛ وليس مسموحًا للإنسان أن يأتي فعلًا لا يحق إلا لله وحده أن يقوم به. عشرات الآيات في القرآن تؤكد أن الكفار سيجدون عقابًا أشد من أي عقاب يمكن لبشر أن يلحقه بهم، وذلك في الآخرة. هنا يوجد أيضًا استثناءان واضحان من تحريم القتل: أولًا معاقبة القاتل وثانيًا القتل في الحروب الدفاعية. أي أن القرآن لا يدعو بحال من الأحوال إلى النبذ التام والدائم للعنف، ولكنه يضع لاستخدام العنف حدودًا واضحة.

الأديان لا تتألف إذن من الحروف التي أوحى الله بها فحسب، وإنما أيضًا من الجوانب التي ربما يتجاهلها المؤمن. قبل أن أدرس العلوم الإسلامية لم أكن أعرف شيئًا عن الآيات القرآنية التي تدعو إلى استخدام العنف. على الرغم من أني نشأت في بيت متدين وتقام فيه الصلاة بانتظام، فإني لم أواجه تلك الآيات كما لا يسمع الأطفال الإنجيليون في حصص «تثبيت العماد» أي شيء عن كتاب القوانين الذي جاء به موسى أو ما نزل به الوحي على يوحنا. فمثل هذه الفقرات لا تظهر في الصلوات، وكنت أرى تديُّن والدَيَّ وجدَّيَّ متسامحًا وسلميًّا، لذلك كان طبيعيًّا تمامًا في رأيي أن أعتقد في الحديث النبوي الذي كنت أسمعه دائمًا الذي يقول إن الطرق إلى الله عديدة مثل عدد أنفاس الإنسان. وكان لديَّ أسئلة ناقدة جدًّا، ولكنها لم تكن تتعلق بالآيات التي يذكر فيها استخدام العنف التي كنت لا أعرفها بأي حال من الأحوال، وإنما تعلقت أسئلتي بالحدود المادية في الشريعة الإسلامية والتي سمعت عنها لأول مرة في حصص الدين المسيحي في المدرسة. عندما تحدثت مع أمي قبل فترة عن ذلك، إذ كتبت الصحيفة يومها عن تطبيق حد الرجم في إيران، عرفت منها أن الأجوبة التي أعطتها لي عندما كنت طفلًا كانت هي نفسها التي سمعتها من والدها عندما كانت طفلة. سألت أمي عندما كانت فتاة صغيرة جدي متعجبة: ما هذا الدين الذي يأمر بالرجم؟ عندها غضب جدي ليس من ابنته ولكن من هؤلاء الملالي الذين أرادوا وقتها إعادة تطبيق حد الرجم. وقال في ثورة إن هذه الحدود القاسية موجودة حتى لا تُطبَّق أبدًا، وبدأ يذكر شروط كل واحد منها؛ قطع اليد وضرب الزوجة والرجم في حالة الخيانة الزوجية. وشرح لأمي قائلًا إنه لا يصح فهم قطع اليد الآن فهمًا حرفيًّا، وضرب الزوجة ما هو إلا ضرب رمزي بالخلَّة على ظهر اليد، كما فعل الرسول، ثم شرح لأمي موضوع الرجم بالكلمات الآتية (حتى أنا ما زلت أذكر جيدًا تحمسه في الكلام عن شئون العقيدة والأخلاق):

يجب أن يحضر الموقف أربعة شهود، ليس هذا فحسب بل يجب عليهم أن يمرروا خيطًا بين المشتبه فيهما، ويجب أن يعلق الخيط حتى تثبت التهمة. فماذا يعني هذا إذن؟ هل هذا واقعي؟ هل يمكن تصور موقف يضبط فيه أربعة شهود ذكور رجلًا وامرأة أثناء ممارسة العلاقة الحميمة ويبقى الاثنان يعلو أحدهما الآخر في هدوء حتى يُمرَّر خيط فيما بينهما إلى أن يعلق الخيط؟ ألا تفهمين أن مغزى مثل تلك الشروط هو ألا تتحقق أبدًا؟ فإلى ماذا كان يرمي هذا قبل ألف عام؟ هل اطلعت على الطريقة التي كان العرب قبل الإسلام يعاقبون بها على الخيانة الزوجية؟

بوصفي من علماء الإسلاميات فأنا أعرف اليوم أن هذه الإجابة ليست تامة الصحة سواء من الناحية التاريخية أو الدينية، ولكنها إجابة أكثر نمطية من وجهة نظر التربية الإسلامية، مقارنة بفتاوى الأصوليين الإسلاماويين وخبراء الإسلام الغربيين، الذين يستخدمون الإسلام في تشويه صورته وجعله يبدو مثل الكاريكاتير عندما يختصرون القرآن على قانون يُطبَّق حرفيًّا. لم يكن جدي وحده الذي يشرح الأمر بهذه الطريقة، فقد سمعت كلامًا مشابهًا من والدي وأقارب آخرين عندما كنت في نفس سن أمي حين طرحت نفس الأسئلة، كان الجميع يقول: يجب أن تراعي السياق، وأن تفهم المعنى الدائم غير المرتبط بزمن معين، وأن تفكر دومًا في أن القرآن يرشدنا إلى الأعمال الحسنة، أعمال الطيبة والرحمة، بل إن الأعمال الحسنة أفضل ثوابًا من الصلاة. بصرف النظر عن ذلك كله، فإن القرآن لا يذكر شيئًا عن الرجم، كما كان جدي يؤكد، ولكن رجال الدين هؤلاء لم يرغبوا في فهم ذلك، لم يرغبوا في فهم ما تأمرهم به كتبهم. لم يكن الله من وجهة نظرهم في المقام الأول الرحمن، وإنما القاضي الجلاد وهم السيافون. كان هذا يستثير ثائرته، وكأني أراه هكذا أمام عيني. والآن تذكر الصحيفة أن حد الرجم سيُطبَّق مجددًا في إيران. قالت أمي هامسة إن هذا أمر لا يُعقل، إنهم لم يتركوا للإسلام شيئًا من كرامته.

لقد تأثرت بالفعل الصورة الإيجابية للإسلام التي كانت لديَّ وأنا طفل حتى قبل أن يعرض خبراء الإسلام الألمان القرآن وكأنه يتكون فقط من دعوات للقتل وللضرب المفضي إلى الموت بفترة طويلة. لم يكن ممكنًا حتى لصبي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره إغفال أن سلطة الحكم العنيفة في إيران استمدت شرعيتها من القرآن والتراث الإسلامي. بسبب الديكتاتورية الدينية هاجر معظم أفراد أسرتي إلى أمريكا، وبعضهم اضطر إلى خوض مغامرات للهرب عبر الجبال الكردية، وأحد أبناء عمومتي سُجن لسنوات طويلة، وأُعدِم أخو زوج عمتي. كل هذا حدث لعائلتي التي كانت تعوِّل كثيرًا على الثورة. يمكن تصور المرارة التي كان الناس يتحدثون بها في مجالسهم المسائية عن الأحوال السياسية، بل وما زالوا يتحدثون بها. لكنني لم أستطع — ليس فقط لأسباب عاطفية — أن أنسى قيم تربيتي الدينية، كما لم أغفل قط المثل العليا في الطيبة والصلاح التي أراها ما زالت متجسدة في بعض أقربائي الأكبر سنًّا شديدي التدين.

يوجد بالتأكيد عدد من المواضع في القرآن يتعارض مع الإعلان العام لحقوق الإنسان، وهذا التعارض لا يمكن التغلب عليه حتى إذا أخذنا في الاعتبار أسباب النزول. إذا أخذنا القرآن مثلًا وتوقفنا فقط عند الحدود مثل قطع يد السارق، فإن جميع أشكال الحوار

لن تغير حقيقة أنها منصوص عليها في القرآن بوضوح. السؤال هو إذن كيف يتعامل المسلمون مع تلك الآيات، كيف يطبقون الأقوال التي تقف في سياق تاريخي معين على زمن آخر: ربما يتجاهلها المسلم العادي وخصوصًا فيما يتعلق بتربيته لأولاده، إلا أن علوم الدين لا يمكن بحال من الأحوال أن تتجاهل هذا السؤال. إن الاختلاف في الإجابات عن هذا السؤال يمتد في الإسلام من ضرورة التطبيق الحرفي وصولًا إلى تفسيرات تسلب القرآن أي أهمية فيما يتعلق بسَنِّ القوانين.

لا يختلف الوضع في المسيحية كثيرًا، ولا نعني بذلك العهد القديم وحسب، بل إن العهد الجديد يطالب بوجود معايير قانونية معينة واستعداد للتضحية بالذات وكذلك ببذل الجهد بصورة غير مسبوقة في تاريخ الأديان من أجل التبشير بالمسيحية، الأمر الذي يغلق الباب في وجه جميع المناوشات الحوارية. ولا يختلف الأمر عما هو عليه لدى الإرهابيين الإسلاماويين عندما كان يُفهم في المسيحية — بصورة متكررة وحتى وقت قريب — حرفيًّا ما ورد في إنجيل متَّى (١٠: ٣٤) من أن المسيح يعلن أنه سيحضر السيف، أو عندما ننظر إلى الغطاء الديني لسياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، أو إلى التبرير المسيحي للمتطرفين الصرب، أو ما أعلنه سيلفيو برليسكوني من «احتلال» العالم الإسلامي، أو المباركة المسيحية التي منحها ممثلون رفيعو المستوى من الكنيسة الأرثوذكسية للحرب الروسية في الشيشان.

إن الأديان لها طبيعة صلبة، يكفي ادعاؤها امتلاك الحقيقة المطلقة، فإن هذا في حد ذاته بمنزلة الفضيحة، وفيه يكمن الخطر الذي ينبعث منها، وتكمن فيه في الوقت نفسه قوة الكلمة التي تأتي عن طريق الوحي في مقابل جميع أشكال النسبية: إن الأديان تأتي من عالم آخر على ما يبدو ولا تقول ببساطة ما نعرفه بالفعل. إلا أنها لا يمكن أن تظهر في أبهتها وادعائها امتلاك الحقيقة وشموليتها إلا بالقدر الذي لا تتحول فيه إلى قانون للدولة يكون ملزِمًا لأصحاب العقائد الأخرى. أي أن الأديان نفسها تحتاج إلى الإطار العلماني، إذا كنا نرغب في عدم اختصار رسالتها في مجموعة من النوايا الحسنة العامة. ولا يمكنها إظهار مزايا ادعائها امتلاك الحقيقة إلا في دولة تكون هي نفسها محايدة دينيًّا، أي حيث يكون ممكنًا تجاهل أو حتى رفض هذا الادعاء. يجب ألا يصبح معنى العقيدة فقدان من لا يتبعونها حريتهم. على أي حال، فالحقيقة تصبح مطلقة عندما لا يصادرها شخص لنفسه. إن جذور البلوى الحالية التي يعاني منها الإسلام إذا أجملنا القول تتمثل في عملية العلمانية وانفتاح التأويل الديني التي لم تحدث إلا بصورة محدودة

أو حتى التي يُتراجَع عنها كثيرًا. يقول الإمام علي، رابع الخلفاء الراشدين: «القرآن كلام بين دفتي كتاب، لا يتكلم ولكن البشر هم من يتكلمون به.» يحتاج الوحي إلى تفسير، وبالنظر إلى إمكانات الفهم المختلفة وتأثيرها على الواقع السياسي يمكن الكلام عن الإسلام. كون الأديان تتألف من مجموع تفاسيرها، فهذا أمر يسري على جميع الأديان، إلا أنه لم يُذكر بوضوح إلا في الإسلام واليهودية. التفاسير التقليدية للقرآن تضم دائمًا أكثر من تحليل. بعد أن يقوم المفسر بعرض كل أوجه التفسير الممكنة يقدم تفسيره هو ثم يختتم بالعبارة البلاغية الشهيرة «هذا والله أعلم.» إن القرآن كلمة الله الخالصة، ولذلك فإن الفهم الإسلامي التقليدي ينطلق من أن أي تفسير للقرآن هو من صنع البشر، ومن ثم فهو بضرورة الحال نسبي. كما يُعد من منطلقات التفسير الإسلامي التقليدي أنه لا يوجد شخص يمتلك القدرة على إعطاء التفسير الوحيد للقرآن، وأن مثل هذا التفسير غير موجود أساسًا. يحدث أحيانًا في الجدل الديني التغاضي عن هذه الحقيقة، لكن لا أحد يتجاهلها تمامًا مثلما يفعل اليوم الأصوليون والخبراء الغربيون، الذين يحاولون عن طريق القرآن أن يوضحوا للمسلمين مدى قسوة دينهم. جزء كبير مما يدخل اليوم في نطاق الثقافة الإسلامية مثل الأعمال الرائدة في الشعر والعمارة والفنون التطبيقية والموسيقى والتصوف والفلسفة لم يتأثر بعوامل من خارج الإسلام فحسب، بل إن كثيرًا من قيمها وموضوعاتها يتناقض مع المعايير التي ينص عليها القرآن دون أن يتسبب ذلك التناقض في أن تعتبرها غالبية المسلمين أمورًا بدعية أو مكفرة. تظهر هذه التناقضات مثلًا في استخدام موضوع الخمر والحب المثلي المحرم في الشعر، أو في العقلانية المفرطة في الفلسفة، أو في الأبهة في المساجد أو في أغاني العشق أو في المساواة بين الأديان في التصوف الإسلامي، أو في سخرية مشاهير الشعراء الحمقى في ألوان الأدب الشعبي المختلفة من كل ما يمثل سُلطة بما في ذلك السُّلطة الإلهية.

من أهم أهداف الأصوليين تطهير الدين «الإلهي» من الثقافة «البشرية»، وخصوصًا من ثقافته الدينية. إنهم يريدون العودة إلى الكلمة المجردة، ويفهمون جميع الظواهر التاريخية التي لا تتفق معها على أنها بدع. يمكن أن ندرك الخطر الحقيقي الذي تشتمل عليه هذه الرؤية إذا نظرنا إلى الحظر الثقافي والتحريم الديني للصور الذي يطبقه بعنف الوهابيون في السعودية أو طالبان في أفغانستان. إلا أن الحياة الحقيقية التي يعيشها معظم المسلمين تختلف عن ذلك. يكفي فقط أن يسافر المرء إلى القاهرة أو إلى طهران أو إلى إسطنبول حتى يفهم كم تختلف المجتمعات الإسلامية عن الصورة التي يجب أن تكون عليها كما

يقول الكتاب، حيث يفهم الناس الإسلام هناك بصورة أكثر تكاملًا وتداخلًا عما هو عليه الحال في الحوار الألماني مع الإسلام؛ حتى الآن على الأقل. أظهر استطلاع حديث للرأي أنه على الرغم من تزايد التدين بين الناس، فإن ٨٥٪ من الأتراك ما زالوا يرون أن الشخص الذي لا يؤدي الصلاة أو الذي يشرب الخمر يمكن أن يكون رغم ذلك مسلمًا صالحًا؛ نعم، مسلمًا «صالحًا». لن يُفاجأ بهذا الكلام إلا من لم ينشأ في كنف الإسلام. يمكن للمرء أن يفهم الإسلام كما يفهمه تيلمان ناجيل، وهو أحد المتحدثَين في حلقة النقاش سالفة الذكر التي نظمتها مؤسسة هانس زايدل، فلم يكن ناجيل — على العكس من شريكه في الحوار هانس بيتر راداتس — حماسيًّا، بل كان يقف على أرضية فيلولوجية صلبة، والأكثر من ذلك أنه واحد من أهم علماء الإسلاميات في ألمانيا. ولكن لحسن الحظ، فإن التاريخ والحاضر الإسلامي لا يعبآن دائمًا بالأفكار الدوجماتية التي يستخلصها ناجيل من القرآن؛ أريد أن أقول إن الإسلام يعيش مثله مثل كل الأديان في العلاقة التفاعلية بين النصوص وقرائها. إذا اتبعنا رؤية ناجيل، فسيكون علينا اعتبار أن معظم المسلمين الذين يستخدمون نفس المصادر التي يستخدمها ويصلون إلى نتائج أخرى — يراها ناجيل خاطئة — كفار، وهذا ما لا ينقص المسلمين فلديهم ما يكفيهم ممن يدعون ذلك.

هل الإسلام قابل للاندماج؟

تقف منذ سنوات قضية هل الإسلام في أوروبا قابل للاندماج في مقدمة الموضوعات هنا حيث يعقد لها حلقات نقاشية ومؤتمرات وندوات بحثية ودورات تدريبية في مؤسسات تعليم وتدريب الكبار وفي الأكاديميات الإنجيلية. أو يُطرح السؤال باختلاف بسيط: هل يتوافق الإسلام مع الديمقراطية؟ ومع الدستور؟ ومع الحداثة؟ ومع التنوير؟ ومع محتوى المقررات الدراسية في المدارس الألمانية؟ وتصل هذه التساؤلات بصورة منتظمة إلى ساحات الجدال الكبيرة على صفحات الثقافة والفنون بالجرائد، وكذلك البرامج الحوارية والبرلمانات. حتى معلقو كرة القدم يحبون الدخول في حلبة النقاش في كل عام عندما يحل شهر الصيام (رمضان)، إذ يتجادلون حول مسألة هل يتناقض الإسلام مع دوري كرة القدم الألمانية أم لا.

أتابع تلك النقاشات وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع، فيبدو أن جميع الكتاب والمتحدثين وضيوف الاستوديو يتفوقون عليَّ في أنهم يعرفون تحديدًا وعلى وجه الدقة ما هو الإسلام، بينما لا أعرف ذلك بنفس الوضوح. فأنا لا أجد على الفور ردًّا شافيًا وافيًا على سؤال: هل يتوافق الإسلام مع الحداثة، إذ يجب أولًا أن نسأل: أي حداثة؟ هل يُفهم المصطلح بصورة معيارية على أنه مجموعة من الأفكار مثل التنوير والعقلانية والتسامح وحقوق الإنسان والديمقراطية؟ أم يُفهم بصورة وصفية باعتباره تسمية لحقبة تاريخية؟ عندها سيدخل تحت مصطلح الحداثة أيضًا الشمولية والمحرقة أو تدمير مساحات واسعة من مظاهر الطبيعة الأساسية لقيام الحياة. ويبدو من الأصعب الإجابة عن السؤال الثاني: أي إسلام؟ الوهابية السعودية التي تمنع النساء من قيادة السيارة، أم أيديولوجية آية الله خوميني، التي تجعل لله وليس الإنسان السيادة على الدولة، وكلا النموذجين يتعارض مع الديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان، أي مع أفكار تنسب عادة إلى الحداثة. ولكن عندما أفكر في مفكرين إسلاميين آخرين أو مدارس أو اتجاهات إسلامية أخرى أو ببساطة

في الإسلام، الذي أعرفه منذ طفولتي؛ إسلام أقربائي وأصدقائي ورجل الدين الذي يقطن بالقرب منا — لا أجد فيه شيئًا غير حداثي. فكل من ذكرتهم لم يحاولوا قط فرض وصايتهم على أصحاب العقائد الأخرى أو من لا دين لهم من جيرانهم، ولم يعاملوهم قط بالعنف، ولم يمنعهم دينهم يومًا من أن يتمنوا لبلدهم تحقيق الديمقراطية والتقدم التقني. هؤلاء المسلمون مسالمون ومهتمون ومحبون للحرية ليس على الرغم من دينهم، ولكن أيضًا ليس بفضله. فلو افترضنا أحد الاحتمالين لكان في هذا مبالغة في تقدير تأثير الإسلام عليهم، إذ إن الإسلام ليس العامل المؤثر والمهم الوحيد في حياة المؤمنين.

ربما يعترض أحد قائلًا إن الأقارب والأصدقاء ورجل الدين هذا قد تأثروا بالغرب، وخصوصًا رجل الدين المذكور، ولكنهم على الرغم من ذلك، وفي الوقت نفسه، يرون أنفسهم مسلمين، وربما لم يفكر واحد منهم حتى الآن تمامًا في احتمالية وجود تناقض. من يرى أن الإسلام غير قابل للتوافق مع الحداثة الغربية، فعليه أن يستبعد مثل هؤلاء المسلمين «المتنورين» حتى يستطيع التشبث بموقفه. وسيكون من الغطرسة بقدر ما سيكون مريحًا اعتبار أولئك المسلمين الذين يجدهم الرأي العام الغربي لطفاء — هم دون غيرهم — الممثلين الحقيقيين لدينهم، ومن ثم يُستخلص أن الإسلام والغرب يكمل كلٌّ منهما الآخر على أحسن وجه. لذلك فإن التأكيد على سلمية رسالة الإسلام لا يساعد كثيرًا عندما يريد المرء شرح الأسباب التي تؤدي إلى كثرة القتل باسم الإسلام حاليًّا.

إن القرآن في حد ذاته لا هو بيان «مؤيد» ولا كتاب «معارض» للحداثة أو الديمقراطية أو الدستور الألماني، إذ إن القرآن يقف إلى حدٍّ بعيد موقف المحايد من تلك القضايا ومن غيرها من القضايا الراهنة الملحة، فيمكن مثلًا أن يرفض المرء أو يؤيد تصور الديمقراطية البرلمانية أو فصل السلطات كما يشاء، لكنه لو قرأ النصوص بعناية، فلن يجد في القرآن أو الأحاديث النبوية أو السيرة ما يساعده في ذلك. يجب أن يطلق المفسر لنفسه العنان في التفسير كي يستطيع إثبات — عن طريق الآية القرآنية التي يكثر الاستشهاد بها — أن الناس يجب أن يتشاوروا في أمورهم واعتبار هذا بيانًا ديمقراطيًّا، أو العكس: أن يستخدم آيات أخرى حسب اختياره ليبرر بها نظام الحكم الملكي أو الشيوعي أو الديني، وهو الأمر الذي أصبح معتادًا منذ القرن التاسع عشر. من الواضح أن الله (أو لكي نصوغ الجملة بصورة محايدة دينيًّا: المتكلم في القرآن) قد ترك إلى حد بعيد للبشر كيفية تنظيم الحكم بصورة عادلة ومرضية له.

بالتأكيد يوجد في القرآن بعض الآيات التي تتعارض مع حقوق الإنسان في صورتها الحالية، ولكن على الرغم من ذلك يشهد عدد غير قليل من الباحثين أن الإسلام هو

الأقرب للحداثة من بين الأديان الثلاثة في منطقة البحر المتوسط التي تنص على وجود إله واحد. ويشير مثلًا الفيلسوف البريطاني إرنست جلنر إلى عالمية الإسلام والتزامه بالنص القرآني وبمفهوم العدالة الروحي، ويشيد أيضًا بإمكانية مشاركة جميع الناس في مجتمع المؤمنين فضلًا على تنظيمه للحياة الاجتماعية بطريقة عقلانية. ويرى مواطنه الأسقف وعالم الإسلاميات كينيث كراج أن القرآن يقدم صورة ديكارتية للإنسان وأن الإسلام يتيح مدخلًا إلى الحداثة بطريقة لم تتحقق في المسيحية إلا بعد التخلي عن محتويات جوهرية من العقيدة. في حين يرى العالم السياسي الفرنسي فرانسوا بورجات أن الإسلام تحديدًا يتيح إمكانية أن يسير المرء على نهج «المرجعيات الأساسية» لخطاب الحداثة ذي الطابع الغربي، بما في ذلك أيضًا مجالي حقوق الإنسان والديمقراطية.

يذكر علماء آخرون حججًا تستحق هي الأخرى بعض التدبر ليدللوا بها على عكس ذلك، إذ إنهم يرون أن العالم الإسلامي لا يمكن أن يدخل إلى الحداثة إلا إذا اتبع النموذج الغربي في خوض عملية التنوير. وعندها لن يبقى من الإسلام إلا القليل، لأن محتوياته الأساسية تتعارض في زعمهم مع المدنية الحديثة. إلا أن علماء تاريخ الفكر الذين يرون منذ فترة طويلة أن الحداثة ليست فقط ظاهرة غربية وإنما ظاهرة عابرة للثقافات يضعون هذا الموقف الأخير موضع التساؤل. ويحاول علماء الإسلام الذين يرون ذلك ذكر الأدلة على أن أجزاءً من العالم الإسلامي تشهد منذ القرن السادس عشر عملية تنوير موازية لما حدث في العصر الحديث الأوروبي ومشابهة له في جوانب كثيرة، إلا أنها لا تتطابق تمامًا معه. إنهم يشيرون فيما يتعلق بالسلطة السياسية والاقتصاد إلى الأمور المتشابهة بين تشييد الممالك الأوروبية وقيام الدولة العثمانية والدولة الصفوية الفارسية أو إمبراطورية مغول الهند، ويرون في الوقت نفسه في تاريخ الفلسفة الإسلامية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مؤشرات واضحة على وجود فكر إصلاحي مستقل. غير أن مجموعة أخرى من العلماء ستهب معترضة ومؤكدة على أن هذا الفكر لا يمكن أن يقارن بما كان يجري في أوروبا وسيصفون كلام زملائهم بأنه أوهام فقط.

إلا أن الواقع لا يتوقف عند مثل هذه الجدالات الأكاديمية حول الإسلام أو الديمقراطية أو حقوق الإنسان أو تحرير المرأة أو الحداثة، لأن الإسلام في الواقع لديه القدرة بوضوح على إضفاء الشرعية على الشيوعية وعلى الملكية، وعلى فصل الدين عن الدولة أو التوحيد بينهما، وأيضًا الاستبداد بالحكم أو الكفاح ضده. بقدر ما يحرص المراقبون الغربيون على تكوين حكم على الإسلام، بقدر ما سيوجد دائمًا مسلمون لا يندرجون تحت هذا الحكم. وسيبقى المسلمون في آخر الأمر هم الذين يحددون في مجملهم ما هو دينهم أو ما يمكن أن يكونه.

التصورات والطقوس والالتزامات الدينية الوحيدة التي يمكن اعتبارها «إسلامية» دون قيد أو شرط لأن جميع المسلمين يتقبلونها بالفعل على أنها أمور معيارية (حتى إن لم يلتزم بها الجميع بالضرورة) لا تقف في طريق عملية الاندماج في نظام المجتمع الأوروبي العلماني، ولا تسهِّل هذا الاندماج في الوقت نفسه. لا يمكن أن يدَّعي أحد بجدية أن المسلمين المتدينين ليس بإمكانهم أن يشاركوا في أوروبا لأنهم يؤمنون بوحدة الله أو بالأنبياء وبالبعث، أو لأنهم يصلون خمس مرات في اليوم والليلة ويصومون شهرًا في العام ويؤدون الزكاة ويريدون الحج إلى مكة مرة في العمر. هذه هي أسس الإسلام التي يعترف بها جميع المسلمين. لا يتعلق اعتراض من يرون أن وجود إسلام أوروبي أو إسلام حديث يشتمل على تناقض في حد ذاته بأصول أو أركان الإسلام، وإنما يتعلق بأن الإسلام لا يعرف فصل الدين عن الدولة، وبأنه يضع قوانين للمجتمع، وبأنه دين يصر على تنظيم الحياة العامة وإصدار قوانين الدولة. هذا الادعاء يتعمد إغفال حقيقة أن شعار ضرورة وحدة الدين والدولة الذي يتشدق به الأصوليون في كل مكان «الإسلام دين ودولة» وينطلق منه المراقبون الغربيون في حكمهم ما هو إلا مُنتَج خرج من رحم الحداثة. لا يوجد أي دليل على وجود هذا الفكر في أي نص قبل القرن الثامن عشر، فقد كانت السلطات الدينية والسياسية في حقيقة الأمر مختلفة في العصور الوسطى الإسلامية عن المسيحية، إذ كانت في العالم الإسلامي تقريبًا دائمًا منفصلة بعضها عن بعض. كان الحكام بالفعل يوصفون بأنهم حُماة العقيدة ورأس المؤسسة الدينية، إلا أن هذا لم يكن يختلف أساسًا عن كون ملكة بريطانيا حتى اليوم هي رأس الكنيسة الأنجليكانية. لم يكن الخليفة هو المفتي، ولم تكن له في المعتاد خلفية تعليمية دينية، ولم يقم بمهام دينية، ولم يصدر فتاوى أو يوقع أحكامًا دينية. كان للسلطات الدينية مؤسساتها الخاصة، وكانت هذه المؤسسات عند الشيعة لزمن طويل مستقلة، بينما كانت عند السُّنة عادة خاضعة للسلطة السياسية. إذن لا يمكن الحديث عن حكم رجال الدين إلا في استثناءات قليلة مثل الدولة الزيدية في اليمن ثم في الجمهورية الإسلامية في إيران. ربما ما كان أحد فلاسفة الدولة مثل الفارابي في القرن العاشر بالضرورة ليرفض مطلب توحيد الإسلام والدولة، إلا أنه كان سيجد الفكرة غير مفهومة، مثل التساؤلات حول «الإسلام والسلطة، الإسلام والمرأة، الإسلام والشر». في المسيحية والهندوسية أيضًا كانت الحداثة هي التي أعطت الدين هذا الطابع، فلم يكن الدين في رأي رجل العصور الوسطى أيديولوجية، وإنما كان يتكون من تعاليم محددة للحياة العملية وإجابات عن أسئلة تنتج عن مواقف حقيقية ملموسة. لذلك فإن الشريعة ليست كتاب قوانين بالمفهوم الحالي، وإنما تشتمل على جميع آراء العلماء بما فيها من تناقض

فيما بينها، تلك الآراء المتعلقة بفُرادى القضايا المتعلقة عادة بالعبادات التي خلُص إليها علماء الشريعة على مدار التاريخ الإسلامي. إن الإشارة إلى النبي محمد والخلفاء الأربعة الأول لا تُعد دليلًا على أن الإسلام يفرض بالضرورة وحدة القيادة الدينية والسياسية، فمن المعروف أنه لا يوجد بعدهم (وكذلك بعد «غياب» الإمام الثاني عشر عند الشيعة) نبي أو خليفة يستمد شرعيته من نسبه إلى النبي وتقبله الأمة لهذا السبب. إن الذي يحاول جعل الموقف الخاص في «تاريخ أمة دينية» مطلقًا، ويجعل منه في تفاصيله نموذجًا يجب تطبيقه على باقي تاريخ تلك الأمة، يفكر بصورة أصولية سواء أكان مسلمًا أم مسيحيًّا، وسواء أكان تابعًا لدين أم مراقبًا له. هذا تحديدًا ما يفعله الإسلاماويون وينتهي بهم المطاف إلى تقليد شكل اللحية والملابس تقليدًا حرفيًّا كما ورد عن النبي، بالإضافة إلى أنهم لا يتركون استخدام الكحل كما كان رجال القرن السابع يضعونه. كان نموذج النبي بالتأكيد الدليل الذي يوجه السلوك والقانون لدى المسلمين، لكن فكرة أن ينظم الإسلام جميع أمور الحياة العامة وأن يصبح نظام الحكم في الدولة فكرة من القرن التاسع عشر نتجت عن الجدل الذي نشأ بسبب التحديات السياسية الفكرية التي وضعها الاستعمار الأوروبي أمام العالم الإسلامي. يسمي عالم الإسلاميات راينر شولتسه القادم من برن هذه الظاهرة بـ «فخ الأصولية» الذي يتخبط فيه الفكر الإسلامي. تعامل النقد الغربي مع الإسلام على أنه كيان مستقل لا يتطور بالزمن، ورأى أن المسلم يستسلم له بطريقة سلبية، وجعل دين المسلمين هو السبب في تخلفهم، وادعى أن هياكله تجعله غير قابل لإحداث إصلاح، مما دفع المفكرين المسلمين في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إلى اللجوء أيضًا إلى الدين حتى يدافعوا عن أنفسهم أيديولوجيًّا ويوضحوا موقفهم المعاكس لذلك، فقد قالوا إنه ليس الإسلام بل الابتعاد عنه هو السبب في أزمة المسلمين، والعودة إليه ستعيد عظمة الإسلام الأولى بصورة تلقائية، وهذا ما كان يتمناه المفكرون في تلك المرحلة التي مهدت للإسلاماوية الحالية. من الجدير بالذكر هنا أن التاريخ القديم للإسلام استُخدِم في كلا الخطابين، الغربي والإسلامي، بوصفه النموذج التفسيري للحاضر، إذ استخدمه الفكر الغربي على أنه نذير، والفكر الإسلامي على أنه نموذج. في كلا الحالين افتُرِض وجود وضع إسلامي أولي ونُظِر إلى التاريخ في جوهره من منظور إلى أي مدى أدى إلى الانحراف عن المعيار الإسلامي الأول. ولم تتغير هذه النظرة تغيرًا جوهريًّا حتى اليوم.

يُجمِع الأصوليون الإسلاماويون على اختلاف أطيافهم على أنهم يبحثون في المصادر الدينية وفي العصر الأول للإسلام عن الأسباب الأصلية لمشاكل وظواهر ومحاولات الوصول

إلى حلول في عالمهم المُعاش. ويتفقون في هذه النظرة الأصولية مع تقاليد تفكير خبراء الشرق الأوسط الغربيين التي ما زالت قائمة منذ مئات السنين. فضلًا على أن هذه النظرة هي الأساس الذي ما زالت تقوم عليه — في كثير من الأحيان على الأقل — العلوم المبسطة والتقارير الصحفية في وسائل الإعلام. لا يمكن لأحد أن يصف المتطرفين في شمال أيرلندا بجنود لوثر، كما لا يمكن لأحد أن يبرر تدنيس المقابر الإسلامية في البوسنة أو حروب الولايات المتحدة الأمريكية الأخيرة مستخدمًا في ذلك الإنجيل، على الرغم من أنها بالفعل كانت قد أعلنت باسم العقيدة المسيحية. إن المفردات الدينية تُفهَم فهمًا صحيحًا تمامًا عندما توضع في سياق اجتماعي وسياسي وإلى حدٍّ بعيد أيضًا دعائي محدد، ومن خلال ذلك أيضًا يُنظر إلى ادعائها الحقيقة بصورة نسبية. هذا لا يعني تجاهل أو التقليل من شأن التبرير الديني، بل وضعه مع عوامل أخرى في سياقه وشرحه من خلال ذلك. عندما يستند فاعلون سياسيون في الشرق الأوسط إلى الإسلام، فإننا نصدق كل كلمة يقولونها، حتى لو لم يكن الإسلام مرجعيتهم قبل ذلك، وكانوا يحاربونه سنوات طويلة مثل صدام حسين وديكتاتوريين علمانيين آخرين في الشرق الأوسط، ويُستخدَم النزاع السياسي معهم دليلًا على وجود صراع الثقافات.

إن الفهم العلماني الغربي يستبعد الشرق من هذا الفهم، فقد أصبح نموذجًا لمنطقة الدين التي يجب تبرير جميع التطورات والأحداث الثقافية والسياسية فيها بالدرجة الأولى تبريرًا دينيًّا. في الموسوعات المبسطة عن الإسلام توجد مقالات عن شعراء ملحدين وقادة شيوعيين، بل أيضًا عن مسيحيين، مثل الكاتب إدوار الخياط والمطربة فيروز وميشيل عفلق أحد مؤسسي حزب البعث. وتُعد الظواهر التي لا تُعرَّف دينيًّا استثناءات بدلًا من فهمها بصورة مستقلة، ويتم مثلًا فهم شكسبير أو الحرب العالمية الثانية أو كتاب هيجل «فينومينولوجيا الروح»، التي لها بُعد ديني ولكن لا يمكن بحال من الأحوال اختزالها فيه. يرى عالم الإسلاميات عزيز العظمة أنه «يكاد يوجد نوع من التواطؤ بين المعلقين الغربيين وأصحاب الأيديولوجيات الإسلاماوية»، فكلاهما يرى أن السبب الأساسي لكل ظاهرة في العالم الإسلامي موجود في النصوص الدينية الأساسية. إن هذه النظرة المعيارية لتاريخ وحاضر «العالم المسيحي» ستفند نفسها بنفسها.

تُعد كلمة «حوار الثقافات» في حد ذاتها أيديولوجية محضة، بل الأسوأ من ذلك أنها تؤكد رغم حسن نيتها النموذج العكسي المتمثل في «صراع الثقافات»، كما لو كان هناك شخصان عليهما أخيرًا أن يتفاهما بدلًا من أن يتعاديا. ولكن أين يمكن للمسلمين الغربيين البوسنيين على سبيل المثال أو الجيلين الثاني والثالث من أبناء المهاجرين أن يجدوا لأنفسهم

مكانًا في دائرة الحوار تلك؟ أين سيكون مكان البرجوازية العربية أو المسيحيين الشرقيين أو المثقفين الذين يعرفون النظام الثقافي الأوروبي أكثر من معظم الأوروبيين. كلا، إن حوار الثقافات أمر كاريكاتيري مثل التحليلات التي تختزل عالم اليوم إلى صدام بين المدنيات المختلفة. إلا أن المشكلة الحقيقية هي أن مثل تلك الكاريكاتيرات تترسخ في أذهان أعداد متزايدة من الناس، وتؤدي بعد ذلك إلى أعمال سياسية أو حتى عسكرية. عندها لا ينفع القول بأن هذا الفهم خاطئ، إذ يجب على المرء وقتها أن يأخذه مأخذ الجد ويتعامل معه. ويمكن أن يكون العكس أيضًا واقعيًّا. ليس أسامة بن لادن وحده الذي يعتقد في تلك الثنائية الجامدة للثقافات، ففي أوروبا أيضًا تُحوَّل الثقافة الخاصة إلى أمر جوهري يُنظر إليه على أنه قائم بذاته وموجود بصورة مستقلة عن الناس.

يسعى منذ عدة عقود عدد من المستشرقين وكذلك عدد من المفكرين المسلمين إلى تخليص الدين من قبضة الأصولية، والنظر إليه على أنه عامل من عوامل التطور التاريخي والثقافة والهوية الجمعية، وهذا لا يعني تجاهل الدين، ولكن النظر إليه في سياق العوامل الأخرى. من الواضح أن المسلمين يواجهون صعوبات أكبر في ذلك، لأنهم لا يجلسون في برج العلوم العاجي ويكتبون، بل إنهم يتعرضون أحيانًا كرد فعل على كتاباتهم إلى الاتهام بالكفر. لذلك اجتهد المنظرون المسلمون الذين يدعون إلى التعددية وحقوق الإنسان والديمقراطية في الدعوة إلى مطالبهم بوصفها إسلامية. فكانوا مثلًا يعلمون أن القرآن هو أساس تحرير المرأة أو التقدم العلمي. لكنهم بذلك يكونون قد تبنوا نفس طريقة تفكير معارضيهم، مع التوصل إلى نتائج عكس نتائجهم. حدث تغير في ذلك في الأعوام الماضية، فقد بدأ كُتاب مثل الجزائري محمد أركون، الذي يُدرِّس في باريس، أو المصري نصر حامد أبو زيد، أو الإيراني عبد الكريم سوروش، في إعادة تعريف مجال سريان ووظيفة الأديان في سياقات اجتماعية وفكرية مختلفة تمامًا. إنهم يحاولون مواجهة ما يرونه من استغلال الدين سواء من قِبل القوى السياسية التقدمية أو الرجعية على حد سواء. يقول أبو زيد: «الإسلام بوصفه دينًا هو إطار مرجعي، لكني لا أستطيع أن أحدد حقوق الإنسان فقط من خلال الرجوع إلى الإسلام، لأن هناك إنجازات إنسانية أخرى خارج إطار الدين ولا يمكن أن أتجاهلها.»

يرى الكُتاب الثلاثة الأصولية ظاهرة حديثة، ويشيرون إلى التعددية الدينية وفصل السلطة السياسية عن الدينية في التاريخ الإسلامي. لكن بينما يحاول أركون الابتعاد عن أي نقاشات وشهادات دينية، ينطلق سوروش في أفكاره من موقف ديني أساسي ثابت.

ويشكو — كما يفعل كثير من المثقفين المتدينين في إيران ما بعد الثورة — من أن الخلط بين الإسلام والسلطة السياسية قد أدى إلى عزوف كبير عن الدين لا سيما بين الشباب. يحذر سوروش بقوله إنه حيثما يُخلط الدين بالسياسة تُنتهَك حرمته ويُحوَّل النظر عن دوره الحقيقي المتمثل في إرشاد الفرد إلى الكمال وهداية خطاه في علاقته بالله. وهو بذلك يسير على نهج تقليد الانقياد لله مع الابتعاد عن السياسة، وهو تقليد كان سائدًا في التشيع القديم على مدار مئات السنين، ويسير في الوقت نفسه على نهج التصوف الإسلامي. كان دائمًا لأسلوب الحياة ورؤية الوجود والميراث الأدبي للتصوف أثر على العالم الإسلامي أكبر من المواقف الأصولية، وكان التصوف منذ القدم الوسيلة الناجحة في مواجهة العقليات الضيقة والالتزام الحرفي بالنص. يمكن للتصوف بوصفه الإسلام عندما تتشبع به الروح أن يكون واحدًا من المجالات التي يتحد فيها التدين والتنوير، وكذلك الفردية والانقياد لله في الفنون. يقول الشاعر الصوفي صوهراب سيبهري — الذي توفي عام ١٩٨٠ ويتمتع باحترام يكاد يصل إلى تقديس ذكراه في إيران — في سيرته الذاتية التي صاغها في صورة شِعر «أنا مسلم»:

مَكَّتي وردة حمراء
منديل صلاتي مصدرٌ، وحجر صلاتي نور.
والبراري هي سجادة صلاتي.

من العبث إذن طرح أسئلة عن مدى قابلية أو عدم قابلية التوفيق بين الإسلام والديمقراطية أو حقوق الإنسان، لأنه أولًا لا يوجد ذلك الفهم «الواحد» للإسلام، وثانيًا حتى لو وجِد فإنه لن يعطي إجابة عن هذه الأسئلة. يمكن على كل حال بالنظر إلى التاريخ أن نقول إن الديمقراطية وحقوق الإنسان من إمكانيات الإسلام. وبالإشارة إلى أمثلة الاندماج سالفة الذكر يمكن أن نقول إن الإسلام من حيث المبدأ قابل للاندماج في مجتمع علماني. لكن يبقى السؤال: هل سيندمج المسلمون في ألمانيا؟ لن تكون الإجابة بالضرورة نفسها.

فليحيا الاختلاف

كان من الواضح لي دائمًا عندما كنت طفلًا أنني أجنبي، مهما تكلمت باللغة الألمانية. إلا أني لم أتعرض لاضطهاد يذكر لهذا السبب، حتى عندما دخلت المدرسة الثانوية. كنت أتعامل كثيرًا مع أشخاص ممن يسبون الأجانب الكثيرين في ألمانيا، أذكر على سبيل المثال فتى كنا نعتبره وهو في السادسة عشر أو السابعة عشر نازيًّا، وهو يعمل اليوم موظفًا في أحد بنوك المدينة. وعلى الرغم من أني كنت أجد آراءه السياسية غريبة جدًّا، فيجب أن أعترف بأنني كنت أراه شخصًا لطيفًا. كان لي طريقة مرحة وساخرة في التعامل معه، وكان يتقبل ذلك مني، وكنت أسخر دائمًا من أقواله اليمينية، ربما لأني لم آخذها قط مأخذ الجد. ولكن إجابة واحدة منه انطبعت في ذهني، وخصوصًا لأني سمعتها بعد ذلك من ألمان آخرين في مواقف أخرى. عندما قلت له أنا أيضًا أجنبي فهل عليَّ أنا أيضًا أن أعود إلى وطني، قال لي: هُراء، أنا لا أعنيك أنت مطلقًا بذلك، أنت لست أجنبيًّا مثل الآخرين. سمعت ذلك كثيرًا وأعرف أني كنت أرد دائمًا بانفعال شديد، فأنا لم أُرد أن يُنظر إليَّ على أني أجنبي جيد.

يمكنني حتى اليوم أن أذكر بدقة بداية تلك العملية، عملية أن أصبح أجنبيًّا وأن أعي اختلافي. كانت المرة الأولى التي يؤثر فيها انتمائي لعالم آخر على سلوكي في العالم الألماني تأثيرًا حاسمًا. عندما أقص الحكاية التالية يجب أولًا أن أوضح أنني لم أكن وأنا طفل أختلف عن الآخرين في أي سمات أخلاقية مميزة. إنها ليست قصة بطولة مبكرة وإنما قصة تضامن لم يكن هناك مناص عنه، ولم أعلم سبب هذا التضامن إلا بعدها بكثير.

في أثناء العام الدراسي الأول، أو في بداية العام الثاني، قدمت لنا معلمة الفصل السيدة كلاين زميلًا جديدًا. كان اسمه ميشائيل، وهو ابن بالتبني لأسرة ألمانية أسود البشرة. لم يحتج الأمر إلى وقت كثير حتى بدأ التلاميذ في مضايقته ودفعه إلى فناء المدرسة وضربه. ولسوء حظه لم يكن مستواه الدراسي جيدًا مما زاد من جرعات السخرية التي يتلقاها.

كنت وأنا طفل في أحيان كثيرة فظًا غليظًا، ولكن في هذه المرة على وجه الخصوص لم يكن بإمكاني أن أشارك في ذلك العبث. ويبدو أن السيدة كلاين أدركت ذلك، لذا أجلست ميشائيل منذ البداية بجواري في الصف الأخير. وقد أفلحت استراتيجيتها إلى حد ما، وإن كانت بالتأكيد لم تكن تفكر في أني سأدفع إليه بكراسي بعد الانتهاء من كتابة الإجابات في الامتحانات. وأسأل نفسي حتى اليوم هل عرفت السيدة كلاين لماذا كانت درجات ميشائيل تتطابق مع درجاتي في بعض المواد، على الرغم من أنه كان نادرًا ما ينطق بكلمة في أثناء الحصص من فرط إحساسه بالقلق. لكن للأسف توجد امتحانات لم تكن تفلح معها المساعدات التي كنت أقدمها، فمثلًا في الإملاء لم يكن هناك إلا القليل مما يمكن أن أساعده به، ربما لم أكن أساعده فعليًّا إلا في الرياضيات.

لا أستطيع القول إلى أي مدى كنت أعي ذلك، ولكن شيئًا خفيًّا كان يربطنا، فكلانا ينتمي إلى عالم آخر بخلاف باقي الزملاء، غير أني بسبب لون بشرتي لم أكن ألفت النظر إلى ذلك، ولم ينشغل أحد بكوني غريبًا؛ بينما كان من الواضح أنه غريب وخصوصًا لأن لغته الألمانية ضعيفة. لكن هذا كان من الممكن أن يكون حالي، أذكر أني كنت أفكر في هذا الاتجاه. إن فكرة أن ميشائيل ساعدني على اكتشاف أني أجنبي فكرة مغرية جدًّا، ولكنها ليست صحيحة تمام الصحة، ولكن عندما كبرت قليلًا وبلغت العاشرة أو الحادية عشرة بدأت أفكر دائمًا في كوني غريبًا. أما ميشائيل فلم ير أن تضامني معه كان بحزم كافٍ، فقد نقله والداه من المدرسة بنهاية العام الدراسي.

أصبح كوني غريبًا مشكلة عندما جعل منه الآخرون مشكلة. كان ميشائيل قصة عابرة ولكن عندما بلغت الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، أي في بداية ووسط الثمانينات، ظهر موضوع مُعاداة الأجانب. وعلى الرغم من أني لم أكد أتعرض لشيء بصورة شخصية، لأنه لم يكن في مدرستنا — عدا الزميل المذكور — مَن يردد أقوالًا عنصرية، لكن لم يخفَ عليَّ أن بعض الألمان كان لديهم تحفظات على الأجانب؛ أي ضدي أنا أيضًا. حتى ولو لم يتعرض الشخص بنفسه لشيء، فإن انتماء الشخص لجماعته يكون أقوى ما يكون عندما تتعرض الجماعة للعداء. إلا أني لم أفكر كثيرًا في الأمر. فأنا لم أشعر بأني معزول ولا أضطر دائمًا إلى تعريف هويتي. فقط منذ عدة سنوات أُسأل دائمًا: هل أشعر بأني ألماني أم إيراني، أوروبي أم مسلم. وهذا يدفع المرء في لحظة ما إلى التفكير في الأمر. لكني لا أريد أن أحصر نفسي في هوية حتى وإن كانت هويتي.

عندما دار النقاش قبل أعوام عن موضوع الهوية الثقافية في ألمانيا وعلاقتها بازدواج الجنسية لاحظت وجود تصور مشئوم وغير واقعي لنقاء الجنس في أدمغة كثير من

السياسيين. عندما كنت أسمعهم يتحدثون، كنت أشعر بأنهم لا يعرفون عما يتكلمون تمامًا، سواء السياسيين أو المعلقين أو المواطنين الذين تُجرى معهم الحوارات الصحفية، أو يرسلون بمقالاتهم إلى الصحف، أو الذين وقعوا على «إعلان الرفض» الذي أصدره الحزب المسيحي الديمقراطي في ولاية هِسِّن (أذكر جيدًا أنهم كانوا بعد ذلك يقولون أمام كاميرات التلفاز «نحن ضد الأجانب»). أي إنسان نشأ في ظل ثقافتين أو حتى أكثر سيجد أن القول بأن الشخص الذي لديه جوازا سفر لديه صراع هوية هو قول نظري بل وغير منطقي. لا يمكن دائمًا الإجابة عن السؤال عن انتماء المرء إلى هؤلاء أم إلى هؤلاء، فربما انتمى المرء إلى كليهما. لن أقع في صراع داخلي إذا كنت أتحرك بين هويتين (وكأنهما كرسيان يجب على المرء أن يجلس عليهما) ولكني سأقع في هذا الصراع إذا كان عليَّ أن أختار هوية واحدة. إن حقيقة الحياة، كل حياة، أكثر تعقيدًا ودقة من أن تختزل في هذا المفهوم المجرد، مفهوم الهوية، بل والأكثر عندما يُطلب من شخص أن يختار هوية ويتخلى عن الأخرى. إن هذا المطلب مستحدث، ولم يصبح ممكنًا إلا بعد أن حاولت أوروبا في حربين عالميتين أن تدمر اختلاط الأنساق الثقافية، وهو ما يُعد في حقيقة الأمر أمرًا بديهيًّا، وذلك عندما دُمرت الحياة اليهودية في برلين والحياة الألمانية في تشيرنيفتسي الأوكرانية، ولأنه وقع طرد الأتراك من سالونيك واليونانيين من إزمير؛ وما هذه إلا أربعة أمثلة من مئات الأمثلة لجنون الهوية الذي طالما حول أوروبا إلى جحيم. الإنسان ليس لوحة رسم، وإن لمن القسوة والبشاعة أن يمنح قانون الجنسية الجديد جميع الأطفال الألمان الأجانب في ألمانيا جوازي سفر، ثم يجبرهم بعد ذلك عندما يبلغون عامهم الثامن عشر على أن يختاروا إحدى الجنسيتين. وإن كان يوجد صراع هوية، فالمتسبب فيه هو هذا الإجبار. جوازات السفر ليست أيقونات وإنما أوراق. لم أشعر بالفخر بألمانيا قدر ما شعرت به يوم منحي الجنسية بوصفي مواطنًا مزدوج الجنسية، وهو الأمر الذي حدث دون طقوس، وإنما بمصافحة بسيطة ورقيقة في قاعة التسجيل بمصلحة الأحوال الشخصية في كولونيا. كان الأمر هادئًا مثل كلمة الوطنية الدستورية، ورزينًا بصورة مدهشة كما أراه.

إن وطني ليس ألمانيا بل هو أكثر من ألمانيا: وطني أصبح كولونيا. وطني هو الفارسية المتكلمة والألمانية المكتوبة، فعندما أكون في الخارج أشعر على الفور أني بين مواطني عندما أسمع الفارسية؛ وليس عندما أسمع الألمانية. ولكن أول ما أفعل هو البحث عن جريدة ألمانية. أتجنب قدر الإمكان قراءة أي شيء مكتوب بلغة أجنبية، لأني أحب أن أقرأ الألمانية، ولا أستمتع أبدًا بقراءة شيء مكتوب بالإنجليزية ولا بالفارسية، حتى وأنا أفهمه. ولا أود

الكتابة أبدًا إلا باللغة الألمانية، وهذا هو الأمر الذي أعتبر نفسي فيه وطنيًّا جدًّا. يُطلب مني دائمًا بوصفي عالمًا أن أصدر كتبي باللغة الإنجليزية، ولا أعرف عالمًا آخر يصر هذا الإصرار على الكتابة باللغة الألمانية. اللغة الألمانية المكتوبة هي وطني، هي وحدها التي أتنفسها، فقط من خلالها أستطيع أن أقول ما عليَّ أن أقوله. لكن هذا ينطبق فقط على اللغة المكتوبة، فقد تكلمت مع أولادي منذ اللحظة الأولى ودون أن أفكر في ذلك باللغة الفارسية. لا ترتبط عندي اللغة الألمانية المنطوقة بمشاعر الألفة والدفء والأمان، حتى إني أتكلم الألمانية أسرع مما يجب. لا أشعر بالارتياح فيها. على العكس من ذلك، فعندما أسمع الفارسية أشعر وكأني في بيتي. صحيح أني لا أتقنها تمامًا، لكنها على أي حال لغتي الأم.

أما في الشعر فيختلف الأمر بالكلية. فعندما أستمع إلى قصيدة باللغة الإسبانية، فإنها تكون تلقائيًّا أقرب لي من أي قصيدة أستمع إليها بالألمانية أو الفارسية؛ هذا على الرغم من أني بالكاد أتكلم الإسبانية. إلا أن كتابًا لنيرودا أو بورجيس أو أوكتافيو باز لا تكون له قيمة في رأيي ما لم يكن بلغتين؛ إذ يجب أن أستمع إلى رنين الكلمات بالإسبانية. بالتأكيد يتعلق هذا الأمر بأن أول أشعار أنشدتها كانت لبابلو نيرودا. وعندما كنت شابًا أعيش قصة حب، كنت أحمل معي دائمًا كتبًا باللغتين، وكنت أقرأ دائمًا الألمانية أولًا ثم الإسبانية. ما زلت أحب ترديد الأشعار الإسبانية، لكن بالتأكيد لو سمعني إسباني لتعجب من ذلك لأني بالكاد أعرف اللغة الإسبانية. وطني ليس فقط ألمانيا أو إيران بل أيضًا شعر بابلو نيرودا الذي رافقني وأنا أتعلم الحب.

توجد في ألمانيا أماكن أشعر فيها بأني غريب مثل شخص أتى من غابة موحشة، مثل الحانات الألمانية التي تقع على نواصي الشوارع. أما الطعام الألماني التقليدي فهو أيضًا في رأيي غريب تمامًا مثل اللحم المخلل المحمر أو السجق بالكبد المفروم أو أرجل الخنزير، بعض هذه المأكولات يعجبني طعمه ولكنه يعجبني كشيء غريب وغير مألوف، كما يحب المرء مثلًا المطبخ البالي. فضلًا على ذلك يوجد أيضًا الأدب الألماني الذي نشأت معه والذي أصبح يسكن بداخلي وأصبح الأدب الخاص بي (وليس الأدب الفارسي الذي لم أتعرف عليه جيدًا إلا في أثناء الدراسة الجامعية). عندما أرى كتبي موضوعة في إحدى المكتبات بجوار الأدب الشرق أوسطي، أذهب على خلاف عادتي وعلى الرغم من خجلي إلى موظف المكتبة وأقدم له نفسي وأرجوه أن يضع كتبي في أرفف الأدب الألماني. من المفهوم طبعًا أني لا أحب أن يوضع عليَّ شعار أدب المهاجرين. أدبي هو أدب ألماني، ولا شيء غير ذلك؛ ألماني مثل كافكا، كما أحب أن أقول بشيء من الخيلاء، وأنا أعترف بذلك. عندما أُدعى لأتحدث

في حلقة نقاشية حول موضوع مهم مثل إثراء الأدب الألماني عن طريق كُتاب لهم خلفيات مهاجرة (هناك بدائل أخرى لهذا الموضوع مثل التعددية اللغوية والأدب، أو المنفى والأدب أو ما شابه) كنت أعتذر قائلًا: شكرًا جزيلًا ليس عندي وقت، ولكن أرجو معاودة الاتصال بي عندما توجد حلقة نقاش عن جوته أو هولدرلين. نعم هولدرلين وطن في رأيي وبكل وضوح؛ وفريق «إف سي كولونيا ١» هو أيضًا وطن لي منذ كنت في الرابعة، إن النشيد غير الرسمي لهذا الاتحاد به مقطع يقول: نحن متعددو الثقافات. أشعر بشعور رائع عندما يغني ٥٠٠٠٠ ألماني قبل كل مباراة: «نحن متعددو الثقافات.» هذا يجعلني إلى حدٍّ ما ألمانيًّا أيضًا. عندما تتكون هذه الـ «نحن» من عدة ثقافات يمكنني أن أقول بلهجة كولونية: «هذا رائع، تحيا كولونيا.» نعم، الوطن يعني لي استاد منجرسدورف، إلا أن هذا لا ينطبق على كل الكرة الألمانية، فأنا لم أشارك الألمان معاناتهم في بطولات كأس العالم قط، على أقصى تقدير كنت أشجع لاعبي كولونيا في المنتخب الوطني مثل فولفجانج أوفيرات في كأس العالم عام ١٩٧٤، أو ديتر مولر وهاينس فلوه في بطولة أوروبا عام ١٩٧٦، وأخيرًا توماس هاسلر وبودو إيلجنر، وطبعًا اللاعب بولدي الذي لم يصبح قط بافاريًّا. لكن في المرات الثلاثة التي تأهلت فيها إيران لكأس العالم كنت أعرف اسم كل واحد من اللاعبين. ولم يسألني أحد أي فريق أشجع. كنت أود أن أقول لأولئك السياسيين الألمان ما هو صراع الهوية الحقيقي فيما أرى؛ ليس أن أمتلك بطاقتي هوية، ولكن إذا لعب فريق «إف سي كولونيا ١» ضد المنتخب الوطني الإيراني. ولكني كنت في حل من ذلك، إذ كان أداء لاعبي كرة القدم الإيرانيين في مباريات كأس العالم الأخيرة سيئًا، وكولونيا تتأرجح منذ سنوات بين دوري الدرجة الأولى والثانية. مما يذكرني بهويتي الأخرى والأهم بكثير؛ هويتي الشيعية، فلا أحد يعاني مثلنا.

لا أحب في الحقيقة أن أتخلى عن وضع الشخص الذي ينتمي للمكان تمام الانتماء ويحتفظ على الأقل ببعض سمات الغريب. حتى في كولونيا حيث أستمتع بحياتي، نادرًا ما أتحلى بالوطنية المحلية كما أفعل وأنا في رحلاتي، حيث أشعر بارتياح عندما أقابل أحدًا من وستفاليا حيث تقع كولونيا. أن يكون المرء غريبًا لا يعني أنه مريض. أرى لدى السياسيين والناشرين، حتى الذين يبذلون جهودًا صادقة ومتحمسة من أجل المهاجرين، تصورًا عن الاندماج يختلف عن تصوري. تتضح صراحتهم عندما يقولون إنه يجب أن يُسمح لنا أن نصبح مثلهم. أحد نواب البرلمان الألماني قال لي ذات مرة وبحماس، وكان حسن النية فيما يقول: في يوم من الأيام سيصبح هؤلاء الأتراك جميعهم ألمانًا حقيقيين! ولكن ربما لا يريدون ذلك تمامًا. ربما تكون الخسارة أن يصبحوا ألمانًا بحسب تصور النائب. ربما لا

يريدون شيئًا غير الذي أراده من قبلهم اليهود، ألا وهو أن ينتموا لهذا المجتمع بكل ما فيه من حقوق وواجبات دون أن يتخلوا عن خصائصهم واختلافاتهم. على أي حال لن تخسر ألمانيا إذا تعودت مجددًا على ازدواجية اللغات وتعدد الهويات.

لقد نشأت معظم الدول القومية في أوروبا على خلاف الولايات المتحدة الأمريكية على أساس من عمليات توحيد الأجناس، ويقوم ذلك من الناحية التاريخية على أساس نموذج وحدة الدم والثقافة واللغة والدين. كان هذا الاتجاه إلى التوحيد أقوى ما يكون في ألمانيا، لأن الأمة تكونت في عصر متأخر، ولم تكن الألمانية مرجعية طبيعية أو مسلمًا بها، مثل إنجلترا للإنجليز أو فرنسا للفرنسيين. فقد وسع هؤلاء بوصفهم قوى استعمارية مفهوم الأمة من خلال تعريف مواطن الدولة. أما قانون الجنسية الألماني فقد ظل حتى إصلاحه من خلال الائتلاف بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الخضر عام ٢٠٠٠ في أجزاء جوهرية منه متطابقًا مع قانون عام ١٩١٤ الذي كان يقوم فقط على مبدأ السلالة. ما زال حفيد الألماني الروسي الذي لا يتحدث الألمانية مطلقًا ولم يعش قط في ألمانيا ألمانيًّا أكثر من حفيد المهاجرين الأتراك الذي لا يعرف لغة أخرى غير الألمانية. لا أعتقد أن هناك دولة أخرى في العالم تقدس أوراقها الثبوتية مثل ما تفعل ألمانيا. والحالة الهستيرية التي تنتاب بعض السياسيين عند الحديث عن إمكانية ازدواج الجنسية لا يمكن فهمها في أي مكان خارج ألمانيا. الانتماء العرقي له هنا ثِقل أكبر بكثير من أي دولة قومية أخرى. لا يُعد الألمان على الرغم من كل دعاوى الثقافة الموجِّهة مجتمعًا قيميًّا. إذا ولد المرء ألمانيًّا، فسيشعر دائمًا أنه ينتمي إلى الثقافة الموجِّهة حتى لو كانت قناعاته تؤهله لأن يكون عدوًّا للدستور. وفي المقابل فإن المهاجرين الذين يمكن وصفهم بأنهم وطنيون دستوريون يتم تذكيرهم دائمًا عن طريق مفهوم الثقافة الموجِّهة بأن عليهم أن يتوجهوا تبعًا لشيء لا ينتمي إليهم ولكنه يقود خطاهم. هذا يخلق فورًا علاقة هرمية لأنه على خلاف المفهوم الدقيق للدستور الذي يرى الجميع سواسية نجد هنا أن الألماني العرق بصرف النظر عن آرائه وقيمه ينتمي إلى الشعب الذي له حق القيادة فقط لأنه ألماني.

من هذا تحديدًا تنبع أهمية المشروع الأوروبي وأهميته للمسلمين خاصة، فهو مهم لعلاقة أوروبا بالإسلام. ولحسن الحظ فإن كل ما يطالب به السياسيون الذين ينادون بالثقافة الموجِّهة أوروبي وليس ألمانيًّا خاصًّا. إذا وُجِد كيان سياسي من الأقليات الدينية والعرقية ينشد مشاركة تتسم بالمساواة، فإن ما يحتاجونه هو أوروبا الموحدة. فعلى النقيض من الدول القومية تحدد أوروبا مجموعة من القيم التي يمكن للمرء بصرف

النظر عن قوميته أو عرقه أو دينه أو ثقافته أن يعترف بها أو لا يعترف بها. هذا لا يلغي الفروق، بل العكس. فأوروبا ليست دولة قومية موسعة، ولكنها حالةٌ تحدُّ سياسيًّا من الاختلافات كي تحافظ عليها. الذي يحدد مَن ينتمي إلى «نحن» الأوروبية ليس محل ميلاد الجَدين ولكن تصورات الحاضر. ربما يرفض ألماني القيم الأوروبية، وربما يتبناها مواطن تركي لتصبح قيمه الخاصة أو العكس. إلا أن كلا الشخصين لا يمكن أن يغيرا الدولة التي يأتيان منها.

إن الإصرار على الحيادية الدينية الواضحة للمشروع الأوروبي التي يستمدها من التنوير ومن الثورة الفرنسية لا يعني التركيز على الأصول المسيحية لكثير من القيم الأوروبية، لأنها أصبحت مع الوقت قيمًا علمانية لها تبرير دنيوي. كون القيم الأوروبية علمانية هو تحديدًا ما يجعلها غير مرتبطة بوطن أو دين، بل يجعلها من حيث المبدأ قابلة للتطبيق في أماكن أخرى. يُعد الوضوح المتطرف من السمات الجوهرية في المشروع الأوروبي والسر الحقيقي وراء نجاحه. إن المؤرخ الذي يعتبر المسلمين «غير أوروبيين» بسبب دينهم يكون من ناحية أغفل التاريخ الأوروبي الذي عرف الدولة العثمانية على أنها فاعل أساسي في أوروبا وأنها خلَّفت دولتين إسلاميتين على الأرض الأوروبية، ويكون من ناحية أخرى قد جعل من أوروبا دينًا بل وعرقًا مما يقلب مشروع التنوير رأسًا على عقب.

إن المعنى الحقيقي للفكرة الأوروبية هو فكرة مجتمع غائي علماني، عابر للحدود الوطنية، متعدد الأديان والأجناس، وتُعد العالمية هي جوهر هذه الفكرة. إنها فكرة لا تقبل النسبية ولا تقف عند حدود جغرافية، إذ لا يمكن أن تتوقف عند حدود جبل طارق أو أيرلندا، ولا تنتهي عند حدود بولندا أو بلغاريا. لم يكن عبثًا أن يرى إمانويل كانت أن السلام الدائم لن يتحقق إلا في ظل فيدرالية عالمية تجمع الدول الجمهورية. بالطبع هذه فكرة يوتوبية، وهو الأمر الذي لا يعرفه أحد أفضل من إيمانويل كانْت، وإن كان أكثر الفلاسفة الأوروبيين عقلانية. لكن في اللحظة التي ستتوقف فيها أوروبا عن وضع هذه اليوتوبيا أمام عينيها وتسعى إلى تحقيقها، فإن فكرة أوروبا ستصبح في طي النسيان. هل المؤسسات الأوروبية الحالية غير شفافة بما يكفي ولا تتمتع بالشرعية السياسية الكافية؟ نعم! إذن يجب الكفاح من أجل جعلها ديمقراطية وترسيخها من الناحية الدستورية القانونية؛ وليس من أجل إضعافها. ألم تحقق تركيا معايير كوبنهاجن التي تُعد وبحق شرطًا للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي؟ هذا أيضًا صحيح! إذن يجب على المرء بذل كل القوة من أجل أن تحقق تركيا تطورًا في اتجاه تلك المعايير؛ وأن يكون فخورًا عندما تصبح تركيا يومًا ما أوروبية.

إن أفق الانتماء إلى أوروبا كان في رأي مجتمعات جنوب وشرق القارة محركًا أساسيًّا في اتجاه زعزعة ديكتاتوريات قائمة وتطبيق إصلاحات جذرية. بالتأكيد مثَّل توسيع الاتحاد الأوروبي الذي أصبح يضم الآن ٢٧ دولة عضوًا في كل مرة تحديًا جديدًا أمام الاتحاد، إلا أنه يجب التفكير في البديل الآخر إذا كانت كل دولة أوروبية قد تقاعست في داخل حدودها. ماذا لو قام الاتحاد الأوروبي ليس فقط بخفض سرعة محرك الإصلاح الأوروبي (ربما يكون خفض سرعة المحرك في بعض الأحيان مهمًّا وخصوصًا عند ارتفاع درجة حرارته) بل أيضًا بإيقاف هذا المحرك وبصورة دائمة، وقتها لن تكون التطورات التي يمكن أن تحدث وتستمر في أوروبا الشرقية وفي تركيا مريحة للأوروبيين القدامى تمامًا، بل ستكون تطورات مأساوية.

حضر والداي من إيران للدراسة في ألمانيا قبل خمسين عامًا. إنهما مندمجان كأفضل ما يكون ويسعيان دائمًا من أجل تحقيق التسامح والتفاهم فضلًا عن مشاركتهما في المجتمع، وهما يتكلمان الألمانية بصورة جيدة، كما أنهما مسلمان متدينان بالمفهوم الأوروبي. وهما سعيدان بحياتهما في ألمانيا، وشاكران لذلك. إلا أنهما وبعد خمسين عامًا لا يقولان عن نفسيهما إنهما ألمانيان. لا أعتقد أن السبب في ذلك هما والداي فقط، فربما رجع السبب إلى ألمانيا أيضًا. حتى أنا نادرًا ما أقول عن نفسي إنني ألماني، مع أني مولود هنا ولديَّ منذ عدة أعوام الجنسية الألمانية إضافة إلى الإيرانية، واللغة الألمانية هي اللغة التي أعيش فيها ومنها. أحيانًا أقولها بصورة مزدوجة: ألماني-إيراني، وكأني أقولها معتذرًا. أما ابن عمي الذي يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية منذ ثماني سنوات فإنه يقول الآن إنه أمريكي. إن المرء لا يُصبح ألمانيًّا. المهاجر يبقى إيرانيًّا أو تركيًّا أو عربيًّا حتى في الجيلين الثاني والثالث. ولكن يمكن أن يُصبح المرء أوروبيًّا. يمكن أن يتبنى المرء المبادئ الأوروبية لأن أوروبا مجتمع غائي ولا يحمل اسمًا يعبر عن دين أو عرق بعينه.

لقد أوضحت الانتخابات الرئاسية الأخيرة في الولايات المتحدة الأمريكية للعالم كيف يمكن للقيم الموحدة أن تعبر حدود العرق والأصل والدين والثقافة وأن تتسامى بها. لم يكن فقط نجاح مرشح في الانتخابات ينتمي لأقلية من عدة أوجه (ابن لعائلة مهاجرة، وأسمر البشرة، ويحمل اسم حسين) هو ما أذهل العالم، وإنما أذهله أيضًا ذلك الاعتزاز الذي أظهره هذا المرشح تجاه وطنه «أمريكا»، وما جسَّده في الوقت نفسه عن مفهوم الاختلاف. لم يكن نجاحه في الانتخابات متعارضًا مع الظروف الأمريكية، بل كان نتاجًا لها. كان ترشح أوباما في الانتخابات الرئاسية الأمريكية أمرًا «مستبعدًا» كما وصفه بنفسه في خطبة الفوز عشية الرابع من نوفمبر. وجدير بالذكر أن مثل هذا الترشح في أي بلد آخر

لن يكون مستبعدًا، بل مستحيلًا. إن أوروبا في ظل جنون السعي وراء خلق مجتمع موحد ومتجانس، ذلك الجنون الذي تحاول بصعوبة التحرر منه حتى بعد مضي ستين عامًا على حروبها الكبرى التي سعت فيها إلى تحقيق ذلك التجانس، ما زالت تحتاج إلى وقت طويل حتى تسجل قصص نجاح تشبه قصة أوباما. ولكنها ربما تتعلم منذ الرابع من نوفمبر ٢٠٠٨ بوتيرة أسرع أن التماهي ينجح عندما لا يكون هدفه توحيد الهوية.

مؤتمر الإسلام في ألمانيا

على الرغم من وجود بعض المعارضة في داخل حزبه ووزارته نجح وزير الداخلية الألماني فولفجانج شويبله في أكتوبر ٢٠٠٦ في إطلاق مؤتمر الإسلام في ألمانيا. وكما هو معهود في مثل تلك المؤتمرات ذات التمثيل عالي المستوى، يجلس المشاركون حول طاولة بحجم ملعب كرة اليد، يلقي كل واحد كلمته وبعدها يُعرَض الأمر أمام الصحافة على أنه كان مؤتمرًا غنيًّا بالنقاشات المكثفة والحيوية، بل نجح أيضًا في التوصل إلى قرارات. إلا أننا إذا أمعنا النظر في تركيبة مثل تلك المؤتمرات، لوجدنا على الجانب الحكومي سياسيين محافظين متشددين من حزب «الاتحاد المسيحي الاجتماعي» وصولًا إلى مدافعين متشددين عن مجتمع التعددية الثقافية، أما على ما يسمى بالجانب الإسلامي فيجلس ممثلون لما هو فعلًا إسلام تقليدي محافظ جدًّا وصولًا إلى ناقدين للإسلام ممن يجدون أن كل ما في الإسلام سيئ. في مثل هذه التركيبة لا يمكن الإجماع على ورقة نتائج إلا إذا كانت شديدة العمومية وذات صياغات غير محددة. غير أن مؤتمر الإسلام في ألمانيا يُعد على الرغم من ذلك أمرًا رائعًا. أن تتحدث الدولة الألمانية بصورة رسمية مع الإسلام، وأن تجعل له اعتبارًا، وأن تجلس مع خمسة عشر مسلمًا إلى طاولة واحدة، وأن يقف وزير الداخلية، وزير من الحزب المسيحي الاجتماعي، أمام الصحافة ويقول: إن الإسلام جزء من ألمانيا وجزء من مستقبل ألمانيا وجزء من مستقبل أوروبا؛ هذه كلها أحداث ذات دلالات رمزية عالية. قبل عقد من الزمان، بل حتى في عهد أوتو شيلي الذي سبق شويبله في هذا المنصب ما كان ممكنًا تصور هذه الأحداث.

أدرك الحزب المسيحي الديمقراطي في ألمانيا، متأخرًا عن الأحزاب الأخرى، أنه لا يمكن أن يتجاهل عملية الهجرة بهذه البساطة. لذا اتخذ الحزب في سنوات شغله مقعد المعارضة القرار الصحيح بعدم التهويل من المشاكل، بل مواجهتها، حتى أصبح الحزب المسيحي الديمقراطي يسعى اليوم من أجل اكتساب صورة الحزب صاحب سياسة الهجرة الناجحة،

حتى يكاد المرء ينسى أن سياسة الهجرة قد بدأت في ألمانيا بوصول الائتلاف الذي جمع الحمر والخضر (الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني وحزب الخضر) في عام ١٩٩٨ إلى الحكم. وخصوصًا الخضر ومحيطهم الثقافي كانوا هم الذين أدركوا مبكرًا أنه لا يصح ترك عملية الهجرة تسير دون توجيه إذا أراد المرء أن يُصبح المهاجرون مواطنين. بصرف النظر عن بعض الأقوال الحالمة، فإن أي اتهام لذلك بالسذاجة يكون اتهامًا ليس فقط رخيصًا بل أيضًا خاطئًا. من يقرأ الكتب الألمانية من ثمانينات القرن الماضي عن المجتمع متعدد الثقافات، التي كتبها مثلًا السياسي دانيل كون-بنديت أو عالم الاجتماع كلاوس ليجيفي، ومن يتذكر النقاشات التي دارت وقتها في ساحة الخطاب البديل أو النسوي، ومن يتصفح أولى الكتب الناجحة بأقلام كتاب ألمان-أتراك مثل إمين أوتسدامار أو فريدون زايموجلوا — فإنه سرعان ما سيثبت أنهم قد ذكروا جميع النواقص التي تمثل اليوم تحديًا أمام مجتمع التعددية الثقافية: ضعف المستوى التعليمي، ونقص الإلمام باللغة الألمانية، واضطهاد المرأة في كثير من أوساط المهاجرين. كانت بالدرجة الأولى حكومات المحليات والولايات التي شارك فيها الخضر أو الحزب الاشتراكي الديمقراطي هي التي أسست مساكن لإيواء النساء واستحدثت وظائف للأخصائيين الاجتماعيين وقدمت دورات لتعلم اللغة الألمانية. لقد نجح الخضر في أثناء فترة حكمهم في تطبيق بعض التغييرات الحاسمة في قانون الجنسية على الرغم من أن وزير الداخلية في حكومة شرودر، أوتو شيلي، كان يعرقل بكل قواه تنفيذ إصلاحات واسعة المدى. لقد نجح الائتلاف بين الخضر والاشتراكيين الديمقراطيين بالدرجة الأولى في إحداث تغيير في عقلية المجتمع حيال هذا الأمر، لا يقل عن الوعي المتنامي بقضية الحفاظ على البيئة.

لم يكن ممكنًا تصور التوجه الجديد للحزب المسيحي الديمقراطي في كلا الحقلين السياسيين دون هذا التغير في المناخ الاجتماعي. على الرغم من جميع الاختلافات في التفاصيل، فإنه يوجد اليوم في ألمانيا إجماع أساسي بين جميع الأحزاب العريقة على ضرورة إدماج المهاجرين في الكيان العام بدلًا من عزلهم. يومًا ما ستعد مساعي الحزب المسيحي الديمقراطي التي جعلت مثل هذا الإجماع ممكنًا من أهم الإنجازات التاريخية في سنوات حكم ميركل، على الرغم من أن الإجراءات الملموسة لا تتماشى مع كل الأقوال النبيلة والقمم ذات التأثير الإعلامي التي تُعقد. لا يوجد مثل هذا الإجماع بين الأحزاب العريقة في دول مثل إيطاليا وسويسرا والدنمارك، فهناك يسعى اليمين السياسي إلى تأجيج نار الكراهية وليس إلى مواجهتها. وهناك يضطلع بعض السياسيين الذين لا يكادون يخفون ازدراءهم للآخر بمسئوليات حكومية، حتى إنهم جعلوا من المقبول استخدام شعارات ما زال استخدامها

في ألمانيا — ولحسن الحظ — مقصورًا على بعض مستخدمي الإنترنت وبعض الأحزاب الصغيرة وبعض الكتاب. فضلًا على أن قطبي العملية السياسية كلٌّ منهما بعيد عن الآخر بنفس الطريقة: اليسار مع الاندماج واليمين ضده، في حين أن سياسية الاندماج يجب أن تكون بعيدة عن مثل تلك التصورات النمطية، وتكوين المعسكرات بتلك الصورة التقليدية. من يرغب في إدماج الناس، فعليه أن يدعو إلى قيم وتصورات مجتمعه بنفس الحماس الذي يُنسب عادة إلى اليمينيين، وأن يكون في الوقت نفسه منفتحًا على الآخر كما يدَّعي عن نفسه اليسار دائمًا. لا يتعلق الأمر بإعلان قيام المجتمع متعدد الثقافات، بل بأن نقوم في آخر الأمر بتشكيله. أما أن يكون المجتمع أحادي الثقافة فإن هذا يُعد كابوسًا.

يُعد مؤتمر الإسلام في ألمانيا بما يضمه من مجموعات عمل متعددة دون النظر إلى نتائجه اللاحقة عملية يكتشف المشاركون فيها — بوصفهم ممثلين عن مجتمعهم — مدى تعقيد التعامل مع قضية الهويات. يجلس على أحد جانبي الطاولة خمسة عشر مسلمًا؛ وتحدث بينهم مشادات كلامية تضطر فولفجانج شويبله إلى تكرار التدخل لتهدئة الأجواء. بينما يجلس على الجانب الآخر خمسة عشر ممثلًا للدولة الألمانية، أي الوزارات الألمانية والولايات والمحليات، ولا يصلون إلى اتفاق في الرأي وهم يحاولون تحديد مفهوم الثقافة الألمانية التي يجب على المسلمين أن ينخرطوا ويندمجوا فيها. أي أن النقاشات لا تدور بين المسلمين على جانب والدولة الألمانية على الجانب الآخر، وإنما تسير طولًا وعرضًا. يشهد مؤتمر الإسلام في أوروبا كثيرًا من الشد والجذب حول تحديد ما هو الإسلام، ويستهلك هذا جزءًا كبيرًا من الوقت ويدور بصورة عاطفية جدًّا. عند النطق بجملة تبدأ بـ «الإسلام هو ...» أو «المسلمون يكونون ...» تظهر المعارضة. الأمر نفسه كان يحدث كلما حاول ممثل عن الدولة، لنقل مثلًا من الحزب المسيحي الاجتماعي، تعريف «الثقافة الموجهة» التي يجب على المسلمين أن يندمجوا فيها. جاءت أول معارضة من ممثل وزارة العدل الذي وضح له أن مثل هذا التوحيد المعياري للمجتمع لا يتوافق مع الدستور. بينما أخذ المسلمون مرة هذا الجانب ومرة ذاك. لم يوجد حتى الآن اختلاف كانت فيه الدولة الألمانية على جانب والمسلمون على الجانب الآخر. وبعد فترة قصيرة تلاشت الجبهات والانتماءات الجامدة والهويات واضحة المعالم التي يروج لها المتطرفون أيضًا في الصفحات الثقافية لدينا مثل: الإسلام ... أو المسلمون ... أو ثقافتنا الغربية!

ولكن عندما كنا نشرع في الحديث عما يجب أن يكون، كان يسود الموقف توافق كبير في الرأي بصورة ملحوظة. اتضح لي أن هناك ما هو أكثر من مجرد معالم توافق اجتماعي

في الرأي حول ما يجب أن يكون عليه الإسلام حتى يتمكن من الاندماج، وما يجب على الدولة القيام به حتى يتسنى للمسلمين الاندماج. إن الأمر يبدأ بالاعتراف الواضح بالدستور وبما ينطوي عليه من قيم، وهو الاعتراف الذي يُتوَقَّع من جميع المسلمين، ولا يتوقف عند رفض أي نسبية ثقافية، فالمعايير القانونية والمعايير المدنية يجب ألا تتعرض لإضعافها من أجل مراعاة الخصوصيات الثقافية. إن ضرب والد لأولاده أو زوج لزوجته لا يكون أقل إيلامًا فقط لأنه يستند إلى تقاليد عريقة. إعطاء من يفعلون ذلك حوافز ثقافية، كما يحدث في بعض قاعات المحاكم، هو الوجه الآخر للعنصرية. يجب ألا تكون هناك حقوق استثنائية للمسلمين، لا سلبًا ولا إيجابًا. من الواضح جدًّا أن قانون الدولة يرتفع في ألمانيا على الشريعة الدينية. ولكننا كنا إلى حد بعيد متفقين في الرأي على أنه من البديهي أيضًا أن يكون للمسلمين الحق في ممارسة شعائر دينهم بحرية، بما في ذلك بناء المساجد والمطالبة بتدريس الدين في المدارس وتدريب علماء الدين المسلمين باللغة الألمانية.

هذه كلها مجالات عامة، إلا أن التوافق الذي يمكن أن نصل إليه في مجتمعنا يمكن أن يصل إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، كما رأيت قبل فترة وجيزة. واحدة من المشاركات في مؤتمر الإسلام هي المحامية التركية التي تقطن في برلين سايران أتيش التي أختلف معها عادة في تحليلاتها للإسلام ونقدها الذي يتسم بالتعميم لسياسة الاندماج التي ينتهجها الخضر والاشتراكيون الديمقراطيون. ولكن عندما قرأت كتابها الأخير الذي يحمل عنوانًا محيرًا قليلًا «خطأ التعدد الثقافي» لم أقتنع بكثير من تحليلاتها، ولكني اكتشفت أني أوافق تقريبًا على كل ما تطالب به بصورة محددة وتتمناه، أوافق حتى على التفاصيل من قضايا دعم تعلم اللغة وصولًا إلى قضية مساواة المرأة. وأعتقد أنه يمكن كسب تأييد معظم الاتحادات الإسلامية وغالبية المسلمين لكثير من مواقفها. ربما يجب علينا في مؤتمر الإسلام أن نقلل من حجم النزاع حول مدى سوء الأوضاع، وأن نفكر فيما يجب عمله حتى نتمكن من حل المشاكل سواء الصغيرة منها أو الكبيرة. وأوضح ذلك عن طريق موضوع محدد: سواء كان معظم أو فقط قليل من النساء المسلمات في ألمانيا يتهددهن الزواج القسري فإن هذا أمر ستختلف حوله الاتحادات الإسلامية وناقدوها، بينما سيقل اختلافهم تمامًا حول أن الإجبار على اختيار الزوج أو الزوجة أمر مرفوض تمامًا. ومن ثم يكون ممكنًا التفكير في طريقة لمنع الزيجات القسرية سواء كانت كثيرة أو قليلة، بدلًا من الشكوى في كل مناسبة من أن يهول هذا الطرف من المشكلة أو يتهاون فيها ذلك الطرف. وفي المقابل يجب بالضرورة ألا يوجد اتفاق في الرأي حول مدى تعرض المسلمين للاضطهاد حتى

نتمكن معًا من مكافحة شتى ألوان الاضطهاد. كما يحدث في معظم النقاشات يضيع في الحديث حول الإسلام للأسف معظم الوقت والطاقة في إثبات خطأ الطرف الآخر بدلًا من إنعام التفكير فيما يجب عمله.

جدير بالملاحظة أن الإسلام هو عامل فقط من عوامل الاندماج المتعددة، فلا كل المهاجرين مسلمون ولا كل الأشخاص الذين يأتون من دول إسلامية متدينون. إن المشاكل الاجتماعية مثل ضعف المستوى اللغوي أو اضطهاد المرأة أو العنف بين الشباب لا تسير بحال من الأحوال في خطوط متوازية مع الدين. وأذكر هنا مثالين على ذلك: طبقًا لجميع الدراسات، فإن أبناء المهاجرين الإيطاليين لديهم صعوبات في المدارس أكثر من أبناء المهاجرين الأتراك، ولا يمكن إرجاع ذلك إلى أسباب تتعلق بعقيدتهم الدينية. لا يُعد العنف الأسري أمرًا نادر الحدوث في الأسر التركية، وهو ما يجب الحديث عنه، ولكن يجب أيضًا ألا نغفل أن هذه الحقيقة تقوم على إحصاءات عن العنف لدى أسر المهاجرين التي سُمِح لها بالعودة إلى ألمانيا عام ١٩٥١.

إذا كنت بصدد تأليف كتاب عام عن قضايا الاندماج لكان التعليم هو أهم مواضيعه وليس الإسلام. المؤسسات التعليمية هي أكثر ما يمكن لألمانيا أن تنجح فيه في التغلب على تحديات التعددية الثقافية في المجتمع أو تفشل في ذلك. تحسنت بعض الأمور في أعقاب «اختبار البرنامج الدولي لتقييم الطلبة» المعروف بـ «بيزا»، مثل توسيع إمكانيات الإشراف في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية، أو إدخال اختبارات تحديد المستوى اللغوي في وقت مناسب قبل دخول المدرسة، على الرغم من وجود بعض المشاكل في التطبيق. وهذا ما ستستفيد منه أكبر استفادة الأسر التي لا تكون قادرة — بسبب ضعف قدراتها اللغوية أو مؤهلاتها — على تقديم المساعدة العلمية اللازمة لأبنائها، التي أصبحت ضرورية في ظل النظام التعليمي الحالي. إلا أن السياسة التعليمية تظل المجال الذي يمثل تهديدًا لمستقبل ألمانيا. تكفي حقيقة أن الأطفال الذين لا يحققون المستوى المطلوب في المدرسة يُرحَّلون بعد أربع سنوات دراسية فقط إلى مدارس التعليم المهني (أو حتى التعليم الخاص)، وهذه فضيحة تربوية واجتماعية ستتضح آثارها شيئًا فشيئًا ليس فقط في الأحياء التي تمثل مشكلة في المدن ولكن أيضًا في المناطق الريفية في شرق ألمانيا. بصورة تنافي كل عقل وإنسانية تسمح ألمانيا لنفسها بإزاحة جزء كبير من شبابها منذ البداية لينضموا إلى طابور القوى المعطلة.

بصرف النظر عن جميع التدخلات السياسية والإجراءات الاجتماعية سيظل هذا المصدر المكتشف للنزاعات في المجتمع قائمًا لأن الهجرة ستستمر مهما زادت القوانين

حدة ومراقبة الحدود دقة. سيجد اللاجئون الفارون من الفقر والحروب، وهم في العادة غير متعلمين ونادرًا ما تعنيهم الثقافة الجديدة في شيء، طريقهم إلى واحات الرخاء في العالم. استبعاد قدومهم بصورة كلية يتطلب التغلب على الأسباب التي تدفعهم إلى الهرب وهذا أمر يُعد وهميًّا في الوقت الحالي تمامًا مثل افتراض أن مثل هذه الهجرة المستمرة لا تتسبب في مشاكل حقيقية. التغلب على هذه المشاكل يحتاج إلى معلمي لغة ألمانية أكثر من احتياجه إلى متخصصين في العلوم الإسلامية.

إذا أمعنا النظر في القضايا الدينية الخاصة في عملية الاندماج، فإننا سنكتشف أن هناك ميزة في أن معظم المهاجرين المسلمين يأتون من تركيا، تلك الدولة العلمانية ذات الديمقراطية الناجحة بصوة أو بأخرى، والتي لا تعاني من كثير من المشاكل التي تعانيها الدول العربية. هذا يختلف عن الوضع في فرنسا التي استوردت مع مهاجريها العرب أيضًا النزاع الشرق أوسطي وتسييس الإسلام، فالمسلمون في ألمانيا ملتزمون عادة بتعاليم دينهم ولكنهم بالمقارنة بفرنسا وبريطانيا العظمى نادرًا ما يكونون أصوليين. لذلك فإن مقومات وجود إسلام ذي توجه علماني ونظرة تعددية في ألمانيا جيدة. وتبقى أكبر مشكلة للمسلمين في ألمانيا هي التعليم، لأنه على خلاف الدول التي كانت إمبراطوريات استعمارية كبيرة في الماضي، فإن المهاجرين إلى ألمانيا نادرًا ما يكونون من الصفوة، وإنما بالدرجة الأولى عمالًا على مستوى ضعيف جدًّا من التعليم، ومن وضع اجتماعي منخفض. لذلك يحتاج الأمر إلى وقت حتى يخرج من بين صفوف المسلمين أشخاص متميزون قادرون على الحديث عن الدين بصورة مناسبة، وقادرون على الحديث مع ممثلي الأديان الأخرى حديث الأكفاء.

يلاحظ المسلمون الآن بالفعل أن هياكلهم الدينية غير منظمة مقارنة بالكنيسة، وأن عليهم استحداث هياكل تنظيمية جديدة، وإعداد جيل جديد من الممثلين والممثلات — نتمنى أيضًا — لهم. سيحتاج الإسلام إلى هياكل جديدة خاصة بالمجتمع الألماني كي يتمكن من الدخول في النسيج الديني الاجتماعي في جمهورية ألمانيا الاتحادية، ولكن هذه الهياكل لا تُستحدَث عن طريق إصدار مرسوم، بل يجب أن تأتي نتيجة تطور. وهذه العملية قد أخذت دفعة جعلت وتيرتها أسرع من خلال مؤتمر الإسلام الذي نشأت في أثنائه معسكرات مختلفة. ولا أعني بذلك فقط تأسيس مجلس تنسيق يجمع الاتحادات الإسلامية، لكني ألاحظ أيضًا أن المسلمين غير المنخرطين في أي اتحاد أو منظمة والذين يمثلون ما بين ٨٠٪ و٩٠٪ من المسلمين في ألمانيا لم يعودوا يتحدثون بوصفهم مواطنين أو كُتابًا أو مخرجين سينمائيين أو أطباء فحسب، بل أصبحوا يتكلمون بوصفهم مسلمين بصورة متزايدة. هذا لا يعني أنهم قد أصبحوا أكثر تدينًا عما كانوا من قبل، وإنما يعني أنهم يقومون

الآن باضطراد بمسئوليتهم تجاه الجماعة الاجتماعية التي ينتمون إليها بسبب أصلهم أو تربيتهم أو اعتقادهم، وهو الأمر الذي لا يختلف كثيرًا عن وضع اليهود العلمانيين في أوروبا الذين لا يكونون متدينين متشددين بالضرورة حتى يتكلموا في الحياة العامة بوصفهم يهودًا. على المدى المتوسط سيقوم المسلمون الليبراليون أيضًا باتخاذ شكل جماعي حتى لا يتركوا تفسير دينهم وتمثيل مصالحهم إما لمتشددين في جانب، أو أتراك كماليين من ناقدي الإسلام في الجانب الآخر. سيصبح الأمر تمامًا كما هو أيضًا في الولايات المتحدة الأمريكية حيث لا يوجد الإسلام الواحد وإنما أشكال كثيرة تناسب كل شخص؛ فرق الراب الموسيقية المسلمة، والمسيحي الديمقراطي المسلم، بل والمثلي الجنسي أو المثلية الجنسية من المسلمين، الذين يقول الكتاب إنهم يجب ألا يُوجدوا، وهم موجودون على الرغم من ذلك.

توجد صعوبة ألمانية خاصة فيما يتعلق بتجنيس الإسلام تتمثل في العلاقة بين الدولة والدين، إذ إنها أكثر تعقيدًا مما هي عليه في كثير من دول أوروبا، فالدولة الألمانية ليست دولة علمانية. هذا يزيد من صعوبة المساواة التامة بين الأديان، ويجعل من الصعب على أي دين جديد أن يجد لنفسه مكانًا. الدولة الفرنسية تعامل — بشيء من المبالغة في التعبير — جميع الأديان نفس المعاملة السيئة، فهي تمنع مثلًا جميع الرموز الدينية في المدارس: لا حجاب ولا طاقية يهودية (كيبا) ولا زي كَنَسي. ربما لا يعجب ذلك الجميع، ولكن لا يمكن لأحد أن يشكو من الاضطهاد، والأكثر من ذلك أن المساواة تحقق التماهي حتى عندما تكون المساواة مؤلمة. لذلك خرجت بعد اختطاف مواطنين فرنسيين في العراق مظاهرات كبيرة شارك فيها مسلمون — وبصورة ملفتة كثير من الفتيات المحجبات — وأكدوا في أثنائها انتماءهم للدولة العلمانية. يجد كثير من المسلمين الفرنسيين أن العلمانية تحميهم من الاضطهاد، لذلك يتابعون ببالغ القلق كيف يحاول الرئيس الفرنسي الحالي نيكولا ساركوزي عن طريق مشروعه «العلمانية الإيجابية» وضع الفصل التام بين الدولة والدين موضع التساؤل.

في مقابل ذلك توجد علاقة تقليدية وثيقة بين الدولة الألمانية والكنائس، ومنذ ١٩٤٥ بينها وبين الجالية اليهودية أيضًا. ولأسباب تتعلق بعملية تاريخية طويلة تفضل جماعة دينية معينة. والآن يأتي دين جديد ويطالب بالمساواة، ليس بالضرورة في صورة أيام عطلات إسلامية أو تمويل بناء المساجد من الموازنة العامة، ولكن بداية المساواة من خلال تقبله في الرأي العام، وهو الأمر الذي لم يتحقق بعد كما توضح النقاشات التي تدور حول بناء مساجد جديدة. غير أن مثل تلك النقاشات ليست سيئة في حد ذاتها، إذ إنها تجبر المسلمين المشاركين فيها على تحديد موقف، مما قد يسهم في عملية التنوير. هناك احتياج إلى

تفكير جماعي في الشكل الذي يمكن أن تكون عليه المساجد في ألمانيا. في كثير من مشاريع البناء تضيع المجتمعات المحلية فرصة استخدام لغة الأشكال المعمارية المعاصرة للتعبير الملموس عن المكسب الذي تمثله التعددية الثقافية للمدن. للأسف يُعد كثير من المساجد المبنية حديثًا كارثة من الناحية الجمالية، وهذا أمر الحديث فيه ليس فقط مسموحًا به وإنما أيضًا مطلوب.

الأمر الأسوأ هو أن ينص القانون على عدم المساواة، فهناك ولايات ألمانية تسمح بالرموز الدينية المسيحية واليهودية وتمنع بوضوح الرموز الخاصة بالإسلام. ولكن من الإنصاف أيضًا أن نقول إن المسلمين ليسوا منظمين بنفس درجة المسيحيين واليهود، لذلك تجد الدولة التي ترغب في تدريس الدين الإسلامي في المدارس صعوبة في تحديد الجهة التي يمكن التحدث معها. يحتاج الأمر إلى وقت، وربما إلى عملية تمتد سنوات حتى يتمكن المسلمون من تكوين أشكال تنظيمية قادرة على التوافق مع المجتمع الألماني. وهذا تحديدًا ما يكسب مؤتمر الإسلام أهميته، لأنه يشكل في البداية منتدى مؤقتًا تدخل فيه الدولة لأول مرة في حوار رسمي مع المسلمين.

على الرغم من وجود بعض الأصوات في مؤتمر الإسلام تنادي بتحديد حرية ممارسة الشعائر الدينية عن طريق منع بناء المساجد أو منع تدريس الدين الإسلامي في المدارس الألمانية، فإنه لا يوجد لا في مؤتمر الإسلام ولا في المجتمع حاليًّا أي قوة سياسية مهمة تسعى لكسب الأصوات من خلال الدعوة إلى عزل الإسلام أو اضطهاد الأقليات. هذا ليس أمرًا بديهيًّا، وهو ما يتضح إذا نظرنا إلى هولندا أو إلى النمسا وتقدم السياسيين الجماهيريين اليمينيين فيهما، أو الدنمارك وقوانينها الفاضحة بشأن الزيجات بين أصحاب الأديان المختلفة، أو سويسرا حيث فاز «حزب الشعب السويسري» باستخدام لوحات دعائية تُذكِّر بلغة الصور التي كان النازيون يستخدمونها. أما في ألمانيا فالحزب الوحيد الذي يمكن أن يكون مناسبًا لمثل هذه السياسة القائمة على تحديد الهوية هو «الحزب المسيحي الديمقراطي». شهد عام ٢٠٠٨ في ولاية هيسن وبقيادة رئيس وزراء الولاية رونالد كوخ آخر محاولة يائسة وعجيبة لخوض معركة انتخابية تهدف إلى فصل الأغلبية الألمانية والمهاجرين في قطبين مختلفين، إلا أن هذه الاستراتيجية لم تنجح لا في داخل الحزب ولا في اللجان الانتخابية. لا، ألمانيا ليست بمعزل عما يمكن ملاحظته من رغبة تجتاح العالم في الرجوع إلى الهوية الخاصة. ولكن هناك سببًا وجيهًا يجعلنا نأمل ألا تتحول تلك الموجة إلى فيضان عارم لدينا.

ملحق

لماذا يجب على الغرب التبشير بثقافته الموجهة، ولماذا يجب على ألمانيا السماح للمعلمات بارتداء الحجاب؟

كلمة شكر بمناسبة منح جائزة العام من مؤسسة هيلجا وإدزارد رويتر في برلين يناير ٢٠٠٤
السادة مانحو الجائزة، السيدات والسادة،

أريد أن أتحدث إليكم عن أطروحتين:

- لماذا يجب على الغرب التبشير بثقافته الموجِّهة؟
- لماذا يجب على ألمانيا السماح للمعلمات بارتداء الحجاب؟

إذا نظرنا إلى الأطروحتين على حدة، فلن نجدهما جديدتين، لكن الأمر غير المعتاد هو أن يمثل المرء كلتا الأطروحتين في الوقت نفسه. إذ إن الذي يصر على الحق المطلق للقيم الغربية يرى في العادة في الحجاب على رأس معلمة مسلمة تحديًا لهذا الحق. والعكس بالعكس، فمؤيدو الحجاب لا يكونون في العادة مبشرين بتصورات القيم الأوروبية. وبالنظر إلى الانقسام الواضح بين المعسكرين يمكن اعتبار كلمتي إسهامًا في التفاهم بين الشعوب، بين مؤيدي الثقافة الموجِّهة ومؤيدي التعددية الثقافية. إلا أن القول بأني أقف بإحدى قدمي في هذا المعسكر وبالأخرى في الآخر لا يكفي كي أستحق جائزة الاندماج هذه، لذا أريد أن أمثل الأطروحتين اللتين تبدوان متناقضتين من خلال ترك مجالي مؤقتًا لأبدأ بأمرين يمكن أن يكونا مألوفين على الأقل لواحد من مانحي الجائزة، ألا وهما: المال، والسيارات الليموزين. وجدير بالذكر مقدمًا أن السيارات الليموزين لا تأتي من شتوتجارت-تسوفينهاوزن وإنما

من سوشو في فرنسا. ولكن كي أسير بالترتيب سأرجع إلى الأمر الذي ذكرته أولًا: المال، وبدقة أكثر مبلغ الجائزة الذي حصلت عليه.

دون أن أثقل عليكم بأرقام، أريد فقط أن أقول إن المبلغ يعتبر في رأيي مالًا كثيرًا، ربما اختلف الأمر في شتوتجارت–تسوفينهاوزن، ولكن حيث أسكن في كولونيا–أيجلشتاين نقول بلهجتنا الخاصة: «يا له من مبلغ طيب!» في اللحظة التي جاءني فيها خبر حصولي على هذا التشريف الكبير تبادر إلى ذهني على الفور سؤال: ماذا سأفعل بهذا المال؟ في الحقيقة لا ينقصني شيء إطلاقًا؛ لديَّ شقة في أجمل مدينة في ألمانيا، ولديَّ جهاز ستيريو ممتاز، ويوم السبت أستطيع شراء تذاكر لأفضل أماكن في استاد منجرسدورف، كي أشاهد فريق «إف سي كولونيا ١» وهو يخسر بشجاعة. ولديَّ أيضًا ما يكفيني لقضاء المساء في الحانة المعتادة، ولا أنوي شراء أشياء كبيرة. وبذلك أكون قد وصلت إلى الأمر الثاني الذي يفهم على الأقل واحد من مانحي الجائزة الكثير عنه. أنا أقود بالفعل أجمل سيارة في العالم: بيجو ٦٠٥ مصنوعة في عام ١٩٩٠ — عام الوحدة الألمانية — العام الذي تمدد فيه الغرب في اتجاه الشرق. كنت أجد الأمر دائمًا جيدًا، منذ البداية. كنت أجلس أمام التلفاز في بيت الطلبة وأقول في نفسي: رائع، فليسقط هؤلاء العجزة! فلتسقط التماثيل! فلتسقط تلك البزات العسكرية! أوقفوا تلك العروض العسكرية! ارسموا شوارب في وجوه الديكتاتوريين المرسومة على اللوحات الدعائية! أحضروا صور دورات المياه المذهبة التي يمتلكونها!

وقد احتفظت بتلك الدفعة في داخلي حتى اليوم: تلك الفرحة بأن الماضي انتهى، مهما كان المستقبل سيئًا. حتى عندما ظهر ذلك الديكتاتور مؤخرًا، الذي لم يكن هناك حاجة إلى رسم شارب في وجهه لأنه كان لديه بالفعل شارب مثل باقي أعضاء حزبه، ولديه لحية أيضًا، لم أشعر بتعاطف معه ولا بحنين إلى الماضي. بالطبع توجد دائمًا أشياء يمكن انتقادها. بالطبع كان أوسكار لافونتين محقًّا وسارت عملية التوحيد بطريقة كارثية. بالطبع فعلت الولايات المتحدة الأمريكية كل الأخطاء الممكنة في اقتحامها العراق، كل مراقب مستقل كان موجودًا في العراق لم يملك إلا أن يهز رأسه متعجبًا من سوء إدارة الاحتلال. وبالطبع توجد سيارات أفضل من البيجو ٦٠٥ المصنوعة عام ١٩٩٠ التي يجب أن أضيف لها ماء التبريد قبل القيام بأي رحلة طويلة. كل من يحاول تشغيل مكيف الهواء في سيارتي في الصيف يهز رأسه متعجبًا من التكنولوجيا الفرنسية. دائمًا يوجد ما هو أفضل. كان من الأفضل أن يقوم الشعب بنفسه بإسقاط صدام حسين. البيجو ٦٠٧ أجمل من البيجو ٦٠٥، وخصوصًا لأنها أحدث ومزودة بجهاز توجيه ملاحي، يبدو أن الأمريكيين أنفسهم

لم يكن لديهم مثله في العراق؛ ولكن لشراء بيجو ٦٠٧ لا يكفي حتى مبلغ الجائزة الذي تقدمه مؤسسة هيلجا وإدزارد رويتر.

لذا فكرت فيما يمكن أن أفعله بالمبلغ؟ وقررت أن أشتري بيتًا قديمًا في أصفهان، وهي مسقط رأس عائلتي، وإذا كنتم منزعجين قليلًا من أني أتكلم طوال الوقت عن المال فبإمكاني أن أدافع عن نفسي مستخدمًا حجة ثقافية: الأصفهانيون هم بخلاء إيران مثل أهل منطقة شفابين في ألمانيا. كل الأصفهانيين، جميعهم بلا استثناء. هذا على الأقل ما يقوله باقي الإيرانيين عنا. تبعًا لما يظنه الناس فنحن بخلاء إلى أقصى حد، ولا نفكر إلا في المال، ونحتال على أي إيراني آخر وخصوصًا الإيرانيين الأتراك أي الأذربيجانيين. زوجتي واحدة من هؤلاء الأتراك ولديها جواز سفر إيراني. لا يسعني إلا أن أحذر من مثل تلك الهويات المزدوجة. عندما أزور عائلة زوجتي في طهران، هل تظنون أني أفهم كلمة واحدة مما يقولون؟ جميعهم يتكلمون هناك اللغة التركية، وهم في قلب طهران. يا له من مجتمع موازٍ مفزع، غير قابل للاندماج تمامًا؛ ولديه رفض للحوار بطريقة لا تعرف الحلول الوسطى. أرسلوا معي كلاوديا روت رئيسة حزب الخضر الألماني وأنا سأريها أين تنتهي حدود القابلية للاندماج. لا يمكن تكوين أسرة مع الأتراك، وهو ما اكتشفته بعد ذلك؛ فكيف يمكن تكوين اتحاد سياسي معهم؟

الأصفهانيون ما كانوا ليقبلوا الأتراك في الاتحاد الأوروبي؛ سيكونون مكلفين جدًّا. ولكن ما كان أيضًا ممكنًا دخول أصفهان في الوحدة الألمانية؛ فهذا أيضًا سيكون مكلفًا جدًّا. كان سيصبح لزامًا عليكم تحمل إيجون كرنتس بصفة دائمة. كونوا شاكرين لأن ألمانيا لا يحكمها أصفهاني، وإن كان من ناحية أخرى وبالنظر إلى ارتفاع الديون فإن اختيار مستشار أصفهاني يمكن أن يكون أمرًا مغريًا. لكني لن أقبل هذا المنصب، وأود أن أوضح ذلك هنا والآن، وإلا فسيكون عليَّ الانتقال مرة أخرى من كولونيا إلى برلين. لقد فعلت ذلك مرة ولكن بعد ثلاث سنوات اكتفيت من ذلك الهدوء وتلك السكينة في جرونيفالد. (...) على الأقل لا يضحك عليَّ أحد عندنا في أيجلشتاين عندما أضيف كل يوم ماء التبريد لسيارتي البيجو، فالجميع هناك يفعل نفس الشيء، فأنا أسكن حي الأتراك، وعندما أرى جيراني يجب عليَّ أن أطلق نفير التنبيه للتحية، وهو أمر لا يتوافق تمامًا مع معايير الاتحاد الأوروبي. إن ما يفعله جيراني يمكن أن يقضي على أي اتحاد من اتحادات اختبار الكفاءة التقنية في ألمانيا. حتى سيارتي البيجو قام الميكانيكي التركي الذي يسكن البيت المقابل لي بتمريرها أمام المراقبين الألمان دون أن يلاحظوا شيئًا. يمكن للمرء أن يتخيل ماذا سيفعل

الأتراك في تعليمات بروكسيل الخاصة بتحديد عدد أعواد الثقاب في علب الكبريت أو بحجم علب السمنة. فما بالكم بثعالب التوفير الأصفهانيين.

لكني لم أكن أرغب في قول أي شيء فيما يتعلق بانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، فهذا الأمر أتركه للخبراء في الشئون التركية الذين يفيضون حاليًّا من بين المؤرخين الألمان ومن بين الأعضاء البرلمانيين من الحزب المسيحي الديمقراطي كما يفيض الماء من مبرد سيارتي. كما لا أرغب في تقديم مرافعة من أجل قبول أصفهان في الاتحاد الأوروبي. كلا، فأنا أريد أن أتحدث عن التفاهم بين الشعوب، فهذا هو الأمر الذي أكرم بسببه اليوم. والأمر كالتالي: نظرًا لأني لم أتمكن من الإسهام في تحقيق التفاهم بين مواطني كولونيا ومواطني برلين، قررت أن أشتري بيتًا في أصفهان آملًا في أن أنجح في تحقيق التفاهم بين الألمان والإيرانيين بصورة أفضل.

يوجد في إيران ألف وستمائة بيت سكني من عصر الصفويين والقاجاريين يخضع للحماية الأثرية. كل واحد من تلك البيوت يُعد قصرًا أو متحفًا، يُعد مجدًا لانفراد الشخصية. كل بيت منها له شخصية مختلفة وله طابع معماري متناسق في حد ذاته. المنمنمات وأعمال الجبس المزخرف والإيوانات والقباب والأسقف المقوسة وأعمال الزجاج والمرايا وأعمال الخشب المطعَّم والرسومات على الحوائط التي تُزيِّن تلك المنازل منذ مئات السنين، ولا يكاد يصل إليها السياح حاليًّا؛ تبهر الأنظار من شدة الجمال والعجب من كثرة الجهود التي بذلها الناس قديمًا لمداعبة الحواس، ويشعر الرائي أيضًا بالخجل لأن الإنسان يفكر دون أن يشعر في طرق بناء البيوت التي تفتقد إلى أي إبداع في إيران حاليًّا. لكل بيت منها فناء داخلي، فيه أحواض الورود وشجيرات الأزهار وأشجار الرمان. إنها منازل تعبر عن اشتياق الإنسان إلى الجنة؛ ألف وستمائة جنة عدن.

للأسف أصبح عالم المباني الذي أحدثكم عنه جزءًا من الماضي. وقد فقد معظم الأصفهانيين في القرن العشرين وعيهم بقيمة تقاليدهم الجمالية والمعمارية. يتم بالتأكيد صيانة النُّصب التذكارية الكبيرة والمساجد في المدينة لجذب السياح. ولكن يومًا بعد يوم تفقد أصفهان وجهها: مع كل طريق يتم شقه عبر الأحياء السكنية بغرض تعبيد طريق سريع، ومع كل باب خشبي يتم استبداله بباب حديدي، ومع كل بيت سكني يتم استبداله ببرج سكني. فالبيوت القديمة عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية؛ مساحة سكنية صغيرة على قطعة أرض كبيرة. لذلك يرى كثير من أصحاب البيوت القديمة أن اللعنة قد حلت بهم عندما تُعلن الحكومة أن بيوتهم أصبحت تحت حماية هيئة الآثار، لأنهم لن يستطيعوا

هدمها وبناء عمارات سكنية. لكن حتى عندما تقرر الحكومة حماية المنازل توجد دائمًا طرق أخرى لهدمها: يمكن تركها فارغة، يمكن ترك خرطوم مياه الحديقة مفتوحًا أيامًا متتالية داخل المنزل في الشتاء، يمكن ترك عدة آلاف من النقود للموظف المختص؛ وبذلك تكون أصفهان قد فقدت جزءًا آخر من ماضيها.

لكن لا يقف وراء ذلك أسباب اقتصادية فحسب، إذ يرغب في السكن بطريقة حديثة كل من يستطيع ذلك، والطريقة الحديثة تعني السكن في شقة ذات مطبخ به ركن للجلوس ومصعد وأرضية من الباركيه وستائر وأجهزة تكييف الهواء والتدفئة المركزية. لم يبقَ سوى كبار السن والعجائز الذين يرغبون في العيش تحت القباب، حيث تُغني القباب عن أجهزة تكييف الهواء. يحكون بشجن عن أمسيات العائلة الكبيرة تحت شجرة الرمان، ولا يستطيعون فهم كيف استطاع أبناؤهم أو ربما كيف استطاعوا هم أنفسهم عندما كانوا شبابًا وحمقى أن يفرطوا في عبق الزهور وصوت خرير الماء. يعرف كبار السن، العجائز، الذين ربما لم يغادروا أصفهان طيلة عمرهم، قيمة البيوت القديمة وما تتيحه من حياة جميلة. إذن يجب بالضرورة ألا يغادر المرء أصفهان حتى يتكون لديه هذا الوعي. أو ربما يجب على المرء أن يرتحل حول العالم حتى يتكون لديه ذلك الوعي: مهندسون معماريون درسوا في الغرب، أصفهانيون عرفوا ترميم وصيانة المدن القديمة في أثناء زيارتهم لمدن أوروبية قديمة، إيرانيون يعيشون في الغرب. هنا وهناك يشتري أحدهم بيتًا قديمًا ويرممه، ربما ليسكن فيه، أو ليؤسس فيه مكتبه، أو ليفتتح فيه مطعمًا أو مقهى. من وقت إلى آخر يسافر أحدهم من كولونيا إلى أصفهان لينقذ بمبلغ الجائزة التي حصل عليها بيتًا من تلك البيوت من حمى الهدم أو من خرطوم الحديقة.

كنت في أصفهان في شهر نوفمبر مدة أسبوع، وطوال الأسبوع كنت أستمع إلى من يحاولون إقناعي بأن تلك البيوت القديمة غير عملية تمامًا. استغرق الأمر مني وقتًا طويلًا حتى استطعت إقناع السمسار بأني لا أرغب في شراء بيت قديم كي أهدمه وأبني مكانه برجًا سكنيًّا.

سألني السمسار: «ترغب في السكن فيه؟»

«نعم. لماذا، هل هذا أمر غريب إلى هذا الحد؟»

«لا، لا. لكن البيت تحت حماية هيئة الآثار، لن تستطيع هدمه بهذه البساطة.»

«نعم، لهذا السبب تحديدًا أرغب في شرائه.»

«لكنك لن تستطيع إعادة بيعه.»

«أنا لا أفكر في إعادة بيعه، أريد أن أرممه وأدخن نرجيلتي في حديقته.»

«نرجيلة، هل تدخن النرجيلة؟»

«نعم، النرجيلة.»

نظر إليَّ السمسار صامتًا، ثم قال أخيرًا:

«دائمًا توجد طرق لهدم مثل هذه البيوت.»

«لا أريد هدمه، أريد إصلاحه.»

«الأمر هكذا إذن.»

نظرت إلى السمسار وأنا أعرف جيدًا فيمَ يفكر: إن هؤلاء الغربيين يخرِّفون. كان يشعر بالود تجاهي، ولذلك كان يريد مساعدتي. بدأ في التفكير مجددًا ثم قال:

«لديَّ بيت رائع الجمال، يطابق تمامًا الذي تبحث عنه، يمكنك الانتقال غدًا للسكن فيه إن شئت. وهو قديم أيضًا، تقريبًا من العصر الحجري.»

«كم عمره؟»

«ثلاثون، ربما أربعون سنة، على الأقل.»

«لا، أنا أعني قديم فعلًا.»

«قديم فعلًا!»

«نعم، من الطين وبه نافورة وشجرة رمان وفناء داخلي.»

«يا لها من أفكار، هل ترغب في تدخين سيجارة ونستون؟»

«لا، شكرًا، أنا أدخن النرجيلة.»

بعد دقائق شرح السمسار لزميله ما أبحث عنه.

«نعم، واحد من تلك البيوت القديمة.»

«لماذا، هل يرغب في هدمه؟»

«لا، الأستاذ من الغرب.»

«نعم، فهمت، من الغرب.»

صحيح! لقد جئت من الغرب. إنه وعي غربي أجول به بين طرقات أصفهان. إنه وعي غربي لدى أصدقائي في أصفهان الذين دفعوني إلى شراء بيت قديم. جميعهم سافر بعيدًا ويتمنى أن يحمل أشخاص مثلي ممن يأتون من الخارج أفكارهم إلى المدينة. وهم يعرفون أنه إذا أصبح لي بيت في أصفهان فسيستخدمه أصدقاؤنا من الغرب، سيزورون المدينة ويعيشون فيها بعض الوقت، وينشرون ثقافتهم الغربية من خلال اكتشافهم لعظمة الثقافة المحلية هناك. يقولون إن هذا سيكون جيدًا للمدينة. عندما يهتم الغربيون بالبيوت القديمة سيزداد عدد الأصفهانيين الذين سيهتمون أيضًا بها.

كان من الضروري في رأيي أن يكون البيت الذي أريد شراءه في مدينة جولفا، وجولفا هذه هي حي الأرمن في أصفهان، أي حي المسيحيين. كنت دائمًا أفكر في أني لو اشتريت بيتًا في أصفهان فإنه يجب أن يكون هناك، ليس فقط لأنه حي يتمتع بهدوء وجمال خاص، أو لأن الإنسان يمكن أن يعيش بحرية أكثر هناك مقارنة بباقي أحياء المدينة، ولكن أيضًا لأن الأصدقاء الغربيين الذين سيزورونني في أصفهان سيسكنون هناك بجوار ثلاث عشرة كنيسة. سيخرجون إلى الشارع ويستمعون فورًا إلى اللغة الأرمنية. ودون أن أقول أي شيء سيكتشفون واحدًا من أكبر مظاهر ثراء أصفهان المتعددة: التنوع الذي تقدمه هذه المدينة من ثراء الفردية والتعددية ليس فقط في المعمار ولكن الأهم التعددية في رؤى الحياة وطرق المعيشة. تحتضن أصفهان خمسة أديان وأربع لغات، ففضلًا على المسلمين والمسيحيين في جولفا يوجد أيضًا اليهود بمعابدهم العشرين فقط في حي جوباره، ويوجد أيضًا الزرادشتيون والبهائيون. واللغات المتكلمة هناك هي الفارسية الحديثة والأرمنية والفارسية القديمة التي يتحدثها اليهود، واللغة الفارسية الأقدم التي يتحدثها الزرادشتيون. لكن يجب ألا تُجمَّل الأمور، فحتى أصفهان تعرضت لمذابح وعمليات تهجير قسري، وبعد الثورة الإسلامية أصبح الوضع — وخصوصًا في رأي البهائيين — غير محتمل. أما إذا صدقنا ما ترويه لنا كتابات الرحالة القدامى وتكلمنا مع الناس اليوم، فإننا سنكتشف أن أصفهان تختلف عن مدن إيران الأخرى في احتفاظها بالتعددية بوصفها أمرًا بديهيًّا؛ وهذا يشبه ما يقوله كثيرًا مواطنو كولونيا بلهجتهم المعهودة «كل شخص مختلف»، وهو فهم يطبع الحياة في مدينة كولونيا حتى اليوم.

ما زال التعايش مستمرًا في أصفهان بين مختلف الأديان والأعراق واللغات؛ نعم ما زال هذا التعايش بديهيًّا. أراه بديهيًّا، وأن عدد المهتمين بالحفاظ على البيوت القديمة قليل جدًّا. لا يلفت انتباه بنات عمومتي مدى أهمية هذه التعددية، إذ لهن نفس الصديقات اليهوديات والمسيحيات. أما أنا فتلفت نظري هذه التعددية في المقام الأول بسبب أني من الغرب. بالتأكيد لم يولد الغرب ومعه التسامح. لكن الآن وبعد أن دمر الغرب إلى حد بعيد تعدديته الثقافية والدينية الأساسية، ما زال التسامح على الرغم من ذلك يتحقق فيه أكثر من أي مكان آخر في العالم. أتمتع بوصفي مسلمًا في وطني في مدينة كولونيا بحريات لا يجدها المسيحي في وطني في مدينة أصفهان، بداية من حرية الملبس وصولًا إلى إمكانية أن أصبح رئيسًا للدولة أو عمدة للمدينة. أتمنى أن تتحقق هذه الحرية الغربية في كل مكان في العالم الإسلامي. ويتمنى معظم الإيرانيين الشيء نفسه.

أتمنى أن يتسع مدى الوعي الغربي، وألا تكافح أصفهان ضد تعدديتها الدينية والعرقية، وألا تتحملها فحسب، بل أن تقبل وترحب بهذه التعددية وتحتفي بها وتحميها. الديمقراطية وتقسيم السلطات وحيادية رؤية الدولة والتسامح وحقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين؛ كلها مبادئ نشأت في القرون الماضية في الغرب ولكنها تصلح للعالم كله. ينبغي على الغرب ألا يتخلى عن هذه القيم أو أن يجعلها نسبية من أجل حوار الثقافات. بل على العكس يجب على الغرب أن يقف وراء تلك القيم ويتمثلها بطريقة تبشيرية. من الأفضل التوسع في ثقافة موجِّهة بمثل هذا المفهوم عن أن تترك الثقافات لتتآكل على أرضها. لذلك فإن تصور المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية عن نبذ النسبية وترك المعايير المزدوجة ونشر الديمقراطية إذا لزم الأمر بالإجبار في جوهره صحيح، وهو ما برهنت عليه صور الناس وهم يحتفلون في كابول بتحريرهم من طالبان، وكذلك فرحة العراقيين عند سقوط تمثال صدام حسين. الخطأ بل والأمر المشئوم كان الوسائل المستخدمة. يجب على أوروبا أن تطور رؤية خاصة بها لإسقاط تماثيل الطغاة في مدن أخرى دون أن تقع دولهم فريسة الفوضى والحروب.

أيًّا ما كان الذي يحاول خبراء الإسلام الغربيون والأصوليون الإسلاماويون إيهامكم به، فإن جاذبية الديمقراطية ودولة القانون وحرية الرأي أكبر في العالم الإسلامي بأضعاف من جاذبية الإرهابيين. الأمر الحاسم في ذلك هو: أن هذه الجاذبية لا تقوم على رغبة في التطبع بالطابع الغربي، وإنما على الرغبة في أن يتولى المرء ذمام أمره. ربما تكون الديمقراطية نموذجًا غربيًّا للدولة، ولكن الأهم أن نتيجته هي استقلالية المجتمع. ربما يجعل ذلك الأمر يتحول إلى معضلة للغرب، كما يحدث حاليًّا للأمريكيين في العراق. عندما يتمتع العراق بحرية حقيقية، فإنه بالتأكيد لن يدع «خبراء» أمريكان يملون عليه سياسته النفطية. لكن في هذه المعضلة يكمن السر الحقيقي وراء نجاح الثقافة الغربية الموجِّهة: من خلال انفصال قيمها ومظاهرها عن الارتباط بدين بعينه أصبحت منفتحة بما يكفي كي تتم ترجمتها إلى ثقافات أخرى في العالم وأن تأخذ طابع تلك الثقافات وتترك وراءها أصولها الغربية. من يسعى اليوم في أصفهان من أجل تحقيق التسامح، فإنه يسير تبعًا لنموذج غربي، ولكنه في الوقت نفسه يعيد اكتشاف جزء من ماضي أصفهان. كتب الفرنسي جان شاردين في القرن السابع عشر عن الأصفهانيين: «أكثر صفاتهم التي تستحق الثناء هي طيب تعاملهم مع الغرباء، والاستقبال والحماية التي يعطونها لهم، وكرم ضيافتهم الشامل وتسامحهم فيما يتعلق بالدين.» نجد في أدب الرحلات من تلك الفترة كثيرًا من التعجب من تعدد الأديان في المدينة و«الفهم المنفتح فيما يتعلق بالأديان»، وهذا ما جاء به جوته في «الديوان

الغربي الشرقي». يشبه الأمر موضوع البيت القديم في أصفهان: الأشخاص المهتمون اليوم بالحفاظ على معماره التقليدي ليسوا من دعاة الوقوف عند التقاليد، بل هم أشخاص مثلي تأثروا بالغرب وثقافته.

خصوصية الثقافة الغربية الموجِّهة التي يجب النضال من أجلها والدعوة لها تكمن في أنها تقوم على التعددية، وهذا بخلاف الأديان التي تنطلق من ضرورة صلاحيتها المطلقة. لذا تسمح أوروبا بالتعددية الدينية. طورت أوروبا والغرب إجمالًا نموذجًا للدولة يُعد من أهم إنجازاتهم، هذا النموذج لا يسمح بالأديان ورؤى الحياة المختلفة فحسب، بل يتعامل معها بمساواة تصل أو يجب على أي حال أن تصل إلى حد التطرف، سواء في قبولها أو في تقييد حريتها. يجب أن يظهر التفوق ودور الريادة الذي تتمتع به الثقافة الغربية حاليًّا في إعطاء المسلمين الحقوق التي كثيرًا ما يفتقدها المسيحيون في دول إسلامية. أعتقد أني بذلك قلت ما يكفي فيما يتعلق بالأطروحة الثانية التي قدمت لها في بداية كلمتي: لماذا يجب على ألمانيا السماح للمعلمات بارتداء الحجاب ما دامت لم تمنع وجود جميع الرموز الدينية في المدارس؟

هنداوي